مسألة الوحدة والتقريب

بين المذهبية السمحة والاستقطاب الطائفي

علاء الدين المدرس

دار الرقيم للنشر والتوزيع - بغداد
١٤٣٢هـ-٢٠١١م

حقوق الطبع محفوظة

١٤٣٢هـ-٢٠١١م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإن هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاتقون ﴾ .

سورة المؤمنون/ ٥٢

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءاً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ .

سورة آل عمران / ١٠٣

﴿ ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ .

سورة الروم/ ٣٢

"والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم"

حديث شريف

"إياكم والخصومة في الدين فإنها تحدث الشك وتورث النفاق"

الإمام الصادق

الإهـــداء

إلى روح النبي الهادي البشير محمد ﷺ وآله وصحبة الطيبين.
وإلى دعاة الوحدة والتقريب القرآني على مدار التاريخ.
ومن يشجّع مساعي الوحدة والتسامح والتعايش البنّاء بين المـــسلمين، ويشجب الخصومة والتطرّف والطائفية.
وإلى الغافلين عن خطر الطائفيـــة علـــى الأمـــة ومـــستقبل دورهـــا الحضاري والأخلاقي بين الأمم.
نهدي هذه السطور...

المقدمة

الوحدة الإسلامية حلم جميل راود الكثير منا في العصر الحديث، لاسيما بعد سقوط دولة الخلافة في مطلع القرن الماضي. ورغم ذلك فان المشروع الوحدوي الإسلامي بقي متعثراً بين أصحاب الدعوة الحقيقية وبين المدعين والمسيسين للفكرة. ولقد نادى بها العروبيون والإسلاميون منذ مطلع القرن الماضي، ولكنهم أخفقوا في تحقيق الحد الأدنى من أهدافها، التي يمكن أن تؤدي إلى قيام الوحدة وتحقيق الحلم العربي الكبير. لقد كانت نتائج تلك الجهود المبذولة غير متوقعة وبالضد مما تمنى أصحابها، فقد كرّس الفكر القومي والديني لواقع التجزئة والتقسيم، الذي جاءت به اتفاقية سايكس- بيكو الاستعمارية بعد الحرب العالمية الأولى، وحوّلت قرارات تلك الاتفاقية الواقع العربي إلى واقع تجزئةٍ مرٍ لا مناص من التهرب منه، وغدا العالم العربي مقسماً إلى أكثر من عشرين دولة عربية، تقع اليوم ضمن إطار جامعة الدول العربية، التي تأسست بعد الحرب العالمية الثانية. وهو عدد غير قليل وقابل للزيادة إلى الضعف، في ظل واقع التجزئة والتخلف الذي يعيشه العالم العربي، وخلال المرحلة الجديدة التي قد تشهد تطبيق سايكس- بيكو جديدة، وفق إستراتيجية (تجزئة المجزأ وتقسيم المقسم).. ذلك الشعار المتداول اليوم والذي يرد في أدبيات النظام الدولي الجديد وكتابات منظريه الغربيين. وهو النظام الذي أعلنت عنه الولايات المتحدة في تسعينيات القرن الماضي. وكان هذا النظام من المقدمات السياسية والاقتصادية لعصر العولمة الحالي

الذي نعيش ظلاله وأزماته اليوم، بسبب التشابك والتداخل الكبير بين عوالم الدول والأمم والشعوب، مع إهمال متعمد من قبل دعاة العولمة للخصوصيات الثقافية والدينية والتاريخية والجغرافية للأمم الأخرى. وقد بات العالم المعاصر يعيش ثورة كبرى في التقنية والاتصالات والإعلام، وكأنه يعيش في قرية صغيرة مترابطة ومتداخلة البرامج والهموم والمشاكل.

لقد بلغ عدد الدول العربية والإسلامية الآن حوالي ستين دولة، وزاد عدد سكانها على المليار ونصف المليار نسمة، تعاني معظمها من حالات الفقر والتخلف والتجزئة والصراع والفتن والأزمات الخانقة. إن واقع التجزئة والتخلف والصراع الطائفي والعرقي الذي نعيش إفرازاته منذ عقود طويلة، هو أهم ما يميز عالمنا العربي والإسلامي، في ظل عصر التكتلات والاتحادات الكبرى الحالية، التي تحكم دول العالم المتحضر اليوم. لقد ظهر الاتحاد الأوربي كاتحاد سياسي دولي في ثمانينيات القرن الماضي، ثم تطور بخطوات سريعة، حتى بات يضم أكثر من (٢٥) دولة أوربية. وهو اليوم يعد ثاني أكبر قوة عظمى في العالم بعد الولايات المتحدة، لاسيما بعد انهيار الاتحاد السوفييتي السابق في عام ١٩٩٠م. رغم إن هذا الاتحاد الأوربي يعاني الآن من تأزّم اقتصادي وسياسي، بسبب التأزّم العولمي الاقتصادي والسياسي الحالي، وكذلك بسبب التمايز الاقتصادي بين دول الاتحاد الكبيرة والصغيرة، مما جعل اليورو يواجه حالة من

الركود والانكماش والاضطراب، بعد العصر الذهبي الذي تنعمت بـــه دول الاتحاد، منذ تأسيسه وحتى مطلع القرن الحالي.

وظهرت في الشرق اتحادات وقوى اقتصادية عديـــدة، منهـــا اتحاد النمور الأسيوية، والاتحاد الأفريقي لدول القارة الأفريقيـــة فـــي مطلع القرن الحالي. وهناك توقعات بظهور اتحادات دوليـــة كبـــرى أخرى، تضم الصين والهند ودول جنوب شرق آســـيا وغيرهـــا مـــن الاتحادات والتكتلات، التي مازالت في طور التشكيل في آسيا وأمريكا الجنوبية.

إن تلك التطورات السياسية والاقتصادية التي يشهدها عـــصر العولمة الحالي، تحدث على مرأى ومسمع من القادة والحكماء العرب والمسلمين، وان أغلبهم في حالة سبات وغياب ثقـــافي وحـــضاري، وبالنسبة للقلة الباقية التي تعي ما يجري من تطورات وتحديات أمـــام الأمة، فهي تعيش حالة من التيه والسلبية والاستسلام أو يغشاها شيء من الغرور الساذج والقناعة الفارغة بما لديها من مظاهر واهية للتقدم والاستقلال. وذلك في ظل حالة التخلف والتمزق والعجز والوهن الذي يغشي عالمنا الإسلامي، ودوامـــة الفـــتن والخلافـــات والـــصراعات المستمرة، التي لم يكن لها مثيل في التاريخ.

إن دورة الحضارة والتاريخ قد أظلت عالمنا اليوم، ونحن في قعر حالة التخلف العلمي والحضاري، وهو أمر مقبول ومألوف فـــي تاريخ الأمم والشعوب، فقد عاشت أوربا في العصور الوســـطى ومـــا قبلها، حالات أشدّ تخلفاً وتمزقاً وصراعاً، وبدرجة أكبر ممـــا يواجـــه

أمتنا اليوم. ولكن الغرب استطاع التغلب على تلك العوامل التي أدت إلى تخلفه لقرون طويلة، واستطاع أن يعالج نقاط ضعفه وتخلفه، وأن يرتقي في سلم المجد والتقدم العلمي، ويتسلم زمام القيادة والصدارة بين دول العالم. واستطاع أن يمتطي ناصية الرقي والتقدم في كافة نواحي الحياة، منذ عصر النهضة والحداثة وحتى عصر العولمة الحالي. فهل نستطيع نحن تجاوز حالة الإخفاق والتردي، التي تحيط بعالمنا الإسلامي وكشف الستار عن أسبابها، لكي نرتقي بأمتنا ونمضي بها قدماً للوصول إلى طريق الوحدة والتقدم والاستقرار؟.

إن التقدم والتراجع الحضاري بين الأمم سنة من سنن الله في الأرض، وان خلافة الأرض لا تُعطى إلا للأمة التي تستحقها، وتمتلك أسبابها المادية والمعنوية. قال تعالى: ﴿**وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**﴾[1]. لذلك لا بد لنا من الوقوف على أسباب الوهن والضعف في نسيج الأمة الحضاري بشتى صوره، لكي تستعيد الأمة مجدها وتصل إلى مصافي الأمم المتحضرة، وتصل إلى الهدف الرسالي باستعادة المجد والتألق لحضارة القرآن المنيرة، التي شعّت على العالم لمدة ألف سنة أو تزيد، منذ عصر النبوة الزاهر وحتى سقوط دولة الخلافة قبل قرن من الزمان. ومن هنا تأتي أهمية المنظور الوحدوي في الإعلام الإسلامي ودوره الحاسم في معالجة التداعيات الخطيرة التي بدأت تنخر بجسد الأمة، بسبب حالة

---

[1] سورة محمد/ ٣٨.

الاستقطاب الطائفي والعرقي والجهوي والقطري. لقد تجاوزت ثقافة الاستقطاب والتعصب والتفرق المكونات الكبرى والأصيلة في قوام الأمة، إلى المكونات الفرعية والأقليات الدينية والمذهبية والعرقية، وبقية المكونات التي يتكون منها المجتمع في الدول الحديثة، حتى بدت اليوم هي المتحكمة في سلوك الكثير من المسلمين.

إن التحديات التي تواجه المشروع الوحدوي عديدة، سواء أكانت على مستوى الوطن والدولة أم الشعب والأمة، منها ما هو داخلي ومنها ما هو خارجي. وتستمد عوامل التحدي الداخلي وجودها، من الثقافة الإسلامية الحالية ومن أثرها التراكمي السلبي على الناس، وهو ما يدعو إلى العمل المنهجي ثقافياً وإعلامياً ودعوياً، لتشكيل رأي عام عربي وإسلامي، بحيث يكون وحدوياً حضارياً فاعلاً في تجميع الطاقات والقدرات والمواهب المتنوعة التي تزخر بها الأمة، لاستعادة مجدها وعزتها وقوتها الكامنة في رسالتها الإلهية العظيمة، وفي موقعها الجغرافي وتاريخها وتراثها العريق وثرواتها البشرية والطبيعية. أما العامل الخارجي لتلك التحديات التي تواجه الأمة وتحجّم حركتها وقدرتها على النهوض والتقدم، فانه يتجسّد في موجات الغزو الثقافي والفكري والإعلامي الخارجي، الذي يحاول اختراقنا والعبث بعقول شبابنا، وزعزعة الهوية والانتماء لحضارة الشرق الأصيلة، بما يخدم مصلحة الآخر، ممثلاً بحضارة الغرب المادية بشتى ألوانها وتياراتها المخالفة لحضارة القرآن. ولعل في مقدمة ذلك العولمة ورؤيتها المادية الشعوبية المتعالية التي تحاول سلب هويتنا

واستبدالها بمعاول الهدم الثلاثة، ممثلة بـ (كره العرب وتراثهم، ونشر الإلحاد والزندقة في المجتمع الإسلامي، ونشر المجون والإباحية والانحلال الأخلاقي بين شباب الأمة). فضلاً عن وسائل الغزو الثقافي والسياسي والاقتصادي الأخرى، التي تهدد وجود أمتنا ودورها الحضاري، كأمة موحِّدة لها رسالة سامية كُلِّفت بها، لهداية البشرية إلى المنهج الرباني الرشيد، ولإحلال الحق والعدل والسلام في الأرض.. وفي ذلك يبشرنا النبي ﷺ بالأمل المشرق والسر الذي أودعه الله سبحانه في هذه الأمة لكي لا تيأس ولا تترك المحاولة المستمرة لامتلاك إرادة التغيير ومعالجة الواقع الفاسد والظلمات التي تحيط بها. يبشرنا بالمجدد الذي يصلح الحال ويهدي الأمة إلى سواء السبيل، والذي لابد أن يبعثه الله سبحانه في كل قرن وعصر من عصور الأمة ليجدد لها أمر دينها وأخلاقها.. وذلك لا يتم قطعاً إلا بامتلاك إرادة التغيير نحو الخير والنور والوحدة. قال تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1]. يقول النبي ﷺ في التبشير بالمجدد: إن الله يبعث لهذا الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها أمر دينها[2]. وظاهرة المجدّدين في التاريخ الإسلامي ظاهرة منيرة ومتكررة، منهم أئمة الدين والمذاهب والحديث والتفسير والدعاة الربانيون والقادة الفاتحون، أمثال عمر بن عبد العزيز والحسن

---

[1] سورة الرعد/ ١١.

[2] رواه أبو داود والصعدي في النوافح العطرة.

البصري ومحمد النفس الزكية وموسى الكاظم وعبد القادر الجيلانـــي وصلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح وغيرهم، من الذين أثّـــروا فـــي الحياة الإسلامية وجدّدوا روح الدعوة والفكر والثقافة والجهاد. ولعـــل أحاديث المهدي يمكن أن تخرّج بهذا المعنى الإصلاحي التجديدي، وقد ظهر في تاريخ الأمة مهديون كثيرون على مدار القرون الماضية.

علاء الدين شمس الدين المدرس
١٢ ربيع الأول ١٤٣٢هـــ

حضارة الغرب وأثرها على البيئة والأمن والسلام العالمي

لقد أفرزت الحضارة الغربية التي كانت العولمة آخر وأعظم ثمارها، الكثير من مظاهر الظلم والفساد في الأرض، حتى طال الإنسان والحيوان والنبات، وأثّر على كافة مظاهر الحياة في المعمورة. وهذه الحقيقة المؤلمة والخطيرة لا تنفي الفضل الكبير لها على التقدم العلمي والتكنلوجي والحضاري بشكل عام، فان خمسة قرون من عمر الحضارة الغربية الحديثة، كحضارة رائدة وقائدة للحضارة البشرية، منذ عصر النهضة وحتى الآن، شهدت تطور علمي هائل في كافة الميادين، لاسيما فيما يخص الجانب المادي والتجريبي. ولكن ذلك لا يمنع من تأشير وتحديد السلبيات والإخفاقات والأخطاء التي ارتكبتها تلك الحضارة بحق الإنسان والحياة على الأرض، لاسيما ما يتعلق بالبيئة والأخلاق والسياسة والاقتصاد، التي تعبر عن أبرز أركان حضارة الإنسان المعاصر. لقد وصل خطر العبث بالبيئة وتلويثها على سبيل المثال، إننا نعيش اليوم حالة تلوث بيئي عظمى لم تشهدها الأرض فيما مضى، مما يهدد الحرث والنسل، وينذر بكارثة كبرى قد تطال الجميع، بسب الفلسفة المادية والرؤية المصلحية السائدة والنظم الميكافيلية البراكماتية الفاسدة[1]، التي تبنتها

---

[1] الميكافيلية هي مبدأ غربي ظهر في بداية عصر النهضة، يبرر المصلحية السياسية ويشرعن النفاق السياسي، ومن أبرز لافتاته (الغاية تبرر الوسيلة). والبراكماتية فلسفة أمريكية تؤمن بالذرائعية والواقعية المصلحية، ومن أبرز

حضارة الغرب المادية، والتي لمس العالم آثارهـا خـلال القـرنين الماضيين، ممثلة بالتوجه الغربي الرأسمالي الاستعماري، الذي يقـوم على الهيمنة والسيطرة على السوق ومصادر التصنيع الأولية، وفـق رؤية الصراع مع الطبيعة وصدام الحضارات الغربية، ووفق النظـرة الامبريالية الغربية لامتلاك الأسـواق والخامـات الأوليـة بمختلـف الوسائل الاستعمارية المعروفة. وتشكل الصفات الرأسمالية أهم ملامح العالم الرأسمالي كالاحتكار واسـتهلاك المظهـر والربـا والـسحت وتكديس المال لدى طغمة رأسمالية ترليونيـة محـدودة، لا تكتـرث بمصالح الأمم والشعوب، إلا بقدر مـا تحقـق البرنـامج المعتمـدة مصلحتها العليا، والمتمثلة في حصر رأس المال وأدواته بيدها وتحت سيطرتها. ومن المظاهر البيئية التي نعيش آثارها اليـوم، والمـسببة للفساد والتلوث العالمي، هي: تلوث الهواء والماء والتربة بالغـازات الملوثة والمواد المشعة الناتجة مـن التفـاعلات النوويـة، وظـاهرة الإفراط في استهلاك الطاقة – لاسـيما الطاقـة الأحفوريـة كـالنفط وأشباهه– وخلال فترة قصيرة لم تتجاوز القرن، ممـا سـبب تفـاقم مشكلة التلوث البيئي والاحتباس الحراري وارتفـاع نـسبة الكربـون والغازات الملوثة للغلاف الجوي. وهي الغازات والملوثات المنتجة في المصانع الكبرى التي تدار من قبل الشركات عابرة القارات ومتعـددة

لافتاتها (أن الحق يكمن في القوة)، وأن لا مانع من التحالف مـع العـدو إذا مـا تحققت المصلحة السياسية.

الجنسيات، فضلاً عن تأثير عوادم السيارات والآليات والأدوات البتروكيمياوية التي تصنع للاستخدام البشري، دون مراعاة للبيئة والآثار البعيدة للتلوث البيئي، وغيرها من المظاهر السلبية التي أثرت على حضارة الإنسان، رغم الرقي والتقدم العلمي الذي واكب المنجزات العلمية والثورة الصناعية التكنولوجية والمعلوماتية في عالم اليوم. وقد تنبه العالم لظاهرة التلوث البيئي والتغير المناخي الحاد مؤخراً، فأقيمت خلال السنوات القليلة الماضية مؤتمرات عالمية عديدة لمعالجة آثار التلوث البيئي على المناخ، تحت مسمى قمة المناخ، كان أولها مؤتمر قمة المناخ في مدينة كيوتو/ اليابان سنة ٢٠٠٨م، ونتج عنه بروتوكول كيوتو البيئي الذي يلزم الدول بالتفاوض على آلية تطبيقه في المؤتمرات القادمة، ثم مؤتمر قمة المناخ في كوبنهاكن/الدانمارك في ديسمبر ٢٠٠٩م، وأخيراً مؤتمر قمة المناخ في كانكون/ المكسيك في ديسمبر ٢٠١٠م، ولم تتفق الدول على موعد تطبيق بروتوكول كيوتو، لاسيما الدول الصناعية الكبرى بسبب اعتراضها على تقليل نسبة إنتاج الكربون الملوث الرئيسي للغلاف الجوي والبيئة، والمسبب للاحتباس الحراري وارتفاع معدلات درجة الحرارة في الأرض إلى أربع درجات فوق المعدل خلال العقود الأخيرة، فضلاً عن التلوث الإشعاعي النووي والتلوث البايولوجي الجيني والفايروسي، وغيرها من مسببات التلوث البيئي التي تحتكرها الدول الكبرى وفق برامجها السرية والتسليحية.

إزاء تلك الحالة الحرجة التي يمر بها العالم – لاسيما بعد عصر العولمة الحالي – يصبح الدور الحضاري والمشروع الوحدوي الإسلامي هو واجب الوقت، ويشكّل ضرورة حضارية وأخلاقية، لإنقاذ حضارة الإنسان المعاصرة، وآثارها الضارة على الحياة والإنسان، والتوجه الحضاري العالمي الذي يقوده الغرب، من الانحراف المهلك والمدمر للحضارة الإنسانية ولوجود الإنسان والحياة على الأرض بشكل عام. إن حالة التأزم التي يشهدها العالم اليوم، فضلاً عن حالة التخلف والفساد والتمزّق التي يمر بها العالم الإسلامي، تدعونا للعمل الجاد من أجل الخروج من تلك الهوة السحيقة التي تحيط بعالمنا، وهو ما يعوّل عليه الإنسان المعاصر في الشرق والغرب، للخروج من الأزمة الحضارية الخانقة التي تواجه الإنسان على الأرض في عصرنا الحاضر. إن الحضارة العادلة تهذّب سلوك الأقليات الدينية والعرقية، وحيثما وجدت الحضارة العادلة الرحيمة، فان أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم يسلكون السلوك الصحيح مع من حولهم، وان كانت حضارة ظالمة، أو حُكم البلد من قبل حاكم طاغي أو مغتصب محتل، وفرض على البلد الظلم والجور والفساد، فان ذلك سيشجع الأقليات على الانفلات من الالتزام بالحدود الشرعية والأخلاقية، والاستئثار والانحياز نحو الظلم والتجاوز والعدوان، وهو ما يحصل اليوم في معظم البلاد الإسلامية.

إن العنصرية الدينية والعرقية والخصومة السياسية كانت ولا زالت من المظاهر المرضية المزمنة التي شهدها الإنسان، وقد ترعرعت تلك الثقافة العنصرية في الغرب مع بداية عصر النهضة، ثم انتقلت إلى الشرق الإسلامي عبر موجات الاستعمار المتعاقبة، منذ الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش في الأندلس ثم موجات الاستعمار الحديث، لتغرقنا في بحر من الثقافات والإيديولوجيات والتوجهات العنصرية المتصارعة، التي تداخلت مع ثقافتنا المحلية، لتصبح الجزء السلبي والمفكّك للثقافة الإسلامية الأصيلة المستمدة من القرآن وهدي النبوة، من خلال نشر دعوات الصراع العرقي والديني والسياسي، التي لم تكن في أسلافنا. يقول الإمام جعفر الصادق في ذم الخصومة في الدين: إياكم والخصومة في الدين، فإنها تحدث الشك وتورث النفاق. لقد كانت الطورانية[1] التركية – على سبيل المثال – أول إسفين زرعه يهود الدونمة بإيحاء من الغرب وثقافته العنصرية والتوراتية، بين الترك وبين العرب وباقي القوميات في الإمبراطورية العثمانية، من خلال حزب الاتحاد والترقي الذي قاد تركيا، في أواخر عهد الدولة العثمانية، وكان معظم قادته من اليهود. وكانت تلك الفتنة العرقية من أسباب سقوط الدولة العثمانية على يد دول الغرب الاستعمارية، من خلال التحالف السياسي الذي تشكل بين العرب وبين

[1] الطورانية هي دعوة قومية عنصرية تركية، ظهرت في أواخر عهد الدولة العثمانية، تؤمن بتفوق العنصر التركي الطوراني على باقي الأجناس.

المستعمر الغربي، وربما المخطط نفسه تكرر مع الأرمن وغيرهم من الأقليات، بما يعكس عقلية الغرب في استغلال وضع الأقليات العرقية والدينية لتحقيق مصالح غربية محددة..

وبعد نشوء الدول العربية والإسلامية الحديثة في أعقاب سقوط الدولة العثمانية، ظهرت الأفكار القومية العلمانية وانتشرت بين الشعوب الإسلامية، لتشكل جداراً عازلاً وحاجزاً ثقافياً بين شعوبها الموحّدّة والمتداخلة. وكان السلاح الثاني، الذي استخدم لتمزيق الأمة إلى فرق وطوائف وأحزاب متنافرة ومتناحرة – بعد سلاح الصراع القومي – مع دخول الاستعمار الأمريكي أرضنا الإسلامية في مطلع هذا القرن، هو سلاح الاستقطاب الطائفي وتحويل الدولة، التي يراد تطبيق تكنولوجيا السلوك عليها وبث الصراع بين طوائفها، إلى أقاليم ودول طوائف وأعراق متنازعة. وقد مورس الاستقطاب الطائفي بشكل منهجي غير ظاهر، من خلال الحرب العراقية الإيرانية والحرب الأهلية اللبنانية وبعض أقطار الخليج العربي، في العقود التي سبقت حقبة الهيمنة الأمريكية الحالية على العالم العربي. لقد مورست عملية تفعيل الاستقطاب الطائفي المبرمج، سواء أكان بين السنة والشيعة، أم بين المسلمين والمسيحيين وكذلك اليهود. وتمّ تغذية الصراع والاستقطاب والتناحر العرقي والديني بين الأعراق والأقليات الدينية والقومية الأخرى، وفي أماكن عديدة من العالم الإسلامي. لكل ذلك لابد من معالجة أشكال التأزم الثقافي والديني والعرقي بين

المسلمين، من خلال تسليط الضوء على مفهوم الاستقطاب الطائفي وأسباب ظهوره وتفشيه بين المسلمين، وكذلك تسليط الضوء على أبرز التيارات والجهات التي تبنته كخيار ديني أو عرقي. وسنحاول في هذا البحث المختصر طرح رؤى وأفكار معاصرة تعتمد مرجعية القرآن والسنة ومنهج الوسطية والاعتدال، في الإجابة عن أسباب التخندق الطائفي والعرقي والجهوي الذي خيّم على حياتنا، والذي أصاب ثقافتنا الأصيلة بالشلل والسلبية. وسنحاول أيضاً الإجابة على بعض الأسئلة المهمة ومنها: هل يمكن للمذهبية المنفتحة والتوجه القومي المعتدل الذي يحترم الخصوصية، أن يكون حلاً مناسباً وطريقاً صحيحاً لتفعيل التسامح والتوازن والتكامل الإسلامي وتحقيق حلم الوحدة الإسلامية، مع تعدد الدول والأقاليم، كما كان شائعاً في العالم الإسلامي في ظل حضارة القرآن وتاريخ الإسلام السياسي قبل الغزو الاستعماري الغربي. وكذلك العمل الجاد من أجل المشروع الوحدوي الوطني، الذي بات من ضرورات وجودنا القومي والديني والحضاري والإنساني، لضمان المصالح المشتركة للدول والشعوب الإسلامية، ومواجهة المشروع الاستعماري الغربي وأدواته المتعددة، والذي يهدف إلى فرض الهيمنة وتكريس التبعية للغرب بشتى صورها، ويسعى إلى التكيف والتطبيع مع مشروع الأمركة والعولمة، والخضوع التام لأجندة الآخر الأقوى، ممثلاً بالغرب الرأسمالي الصهيوني الصليبي، حسب نظرية تبعية المغلوب للغالب؟.

ربما يكمن جزء من الإجابة على السؤال أعلاه، في الشعار الحضاري الذي يحترم القوميات والأعراق والأقليات الأخرى، بالاتساق مع التأكيد على أسبقية وأهمية التوحيد الديني، والذي ينسجم مع روح القرآن وحضارته الواقعية المتسامحة، وهو: أسبقية التوحيد الديني على الوحدة القومية، واندماجهما في الحياة العملية بسبيكة واحدة[1]. وهو ما يضمن ويؤمّن احترام القوميات والأديان معاً، ويدعو إلى التعايش الديني والقومي بسلام ومحبة وتكامل، وكذلك ارتباط مكونات المجتمع الإسلامي الدينية والقومية بتراث وتاريخ مشترك ومجيد، منذ ظهور الإسلام وحتى اليوم[2].

إن هويتنا العربية الإسلامية مرهونة بحل تلك الإشكالية، التي باتت تهدد وجودنا الحضاري والثقافي، في صميم منهجه الوحدوي الوطني في التسامح والتعايش والتحاور مع نفسه، ومن خلال أطيافه وتياراته ومذاهبه العديدة، فضلاً عن الآخر الذي أمرنا الله سبحانه أن نتعايش معه، مهما اختلف معنا في اللون أو الجنس أو الدين، باعتبارنا أمة الحضارة والرسالة، وإن التعايش والتسامح هو من أبرز ملامح حضارة القرآن، كما أكد القرآن الكريم وجسّدته سيرة المصطفى ﷺ وسنته الصحيحة. قال تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى**

---

[1] انظر: كتاب المنهج المحلي من أجل التغيير/محمود الغزنوي (مخطوط).

[2] انظر: كتاب عولمة اللغة والتاريخ/ للمؤلف، فصل المسائل الأخلاقية في نظام الفتوة. ط. عمان ٢٠٠٨م – عالم الكتب الحديث.

﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1]. كما أكد النبي ﷺ هذه الوحدة بين بني البشر والمساواة بين أجناسهم وألوانهم في حجة الوداع، فتلا الآية أعلاه، ثم قال: ألا أنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا أعجمي على عربي، ولا أسود على أحمر ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى[2].

المذهبية بين مفهوم الوحدة والاستقطاب الطائفي

لقد توافق نشر كتابي (النسب والمصاهرة بين أهل البيت والصحابة)، مع نشر كتاب (تطور الفكر السياسي الشيعي) للأستاذ أحمد الكاتب، الذي طبع في تسعينيات القرن الماضي. وقد لاقى كتاب (النسب والمصاهرة) القبول لدى الناشرين العرب، فطبع خلال السنوات التالية بين سنة ١٩٩٨-٢٠٠٦ طبعات عديدة في عدة عواصم عربية، في بغداد وعمان والدوحة والقاهرة ودمشق[3]. وأصبح من المراجع المهمة في نشر الثقافة الوحدوية الإسلامية، وعبّر آنذاك عن منهج واضح لنشر الوسطية والاعتدال ومعالجة الخلاف الطائفي،

---

[1] سورة الحجرات/ ١٣.

[2] رواه الطبراني في المعجم الكبير.

[3] انظر: كتاب النسب والمصاهرة بين أهل البيت والصحابة، وهو أول كتاب نشر لي في موضوع الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية، وقد طبع في بغداد سنة ١٩٩٨م، وطبع معه كتاب (الأمة الوسط). والكتابان يعالجان موضوع واحد هو تسليط الضوء على مآثر الآل والأصحاب وفق المنظور القرآني الوسطي.

وتسليط الضوء على المآثر والصور المضيئة للصلة بين الآل والأصحاب، لاسيما في الوسط السني بشتى أطيافه. وظهر بعد ذلك عدد من الكتب والمقالات والمطويات، التي اهتمت بتراث الآل والأصحاب، وبأشجار النسب والمصاهرات، التي كانت سائدة في عصر النبوة، وفق الرؤية السنّية المعتدلة. ومن أمثلة تلك المصاهرات زواج أسماء بنت عميس من أبي بكر بعد استشهاد زوجها جعفر بن أبي طالب، ثم زواجها من علي ﷺ بعد وفاة أبي بكر ﷺ. وقد أنجبت محمد بن أبي بكر الذي هو ربيب علي ﷺ، وشقيق عون بن علي من زوجته أسماء بنت عميس. وكذلك زواج عمر بن الخطاب من أم كلثوم بنت علي ﷺ[1]، وغيرها من الزيجات والأمثلة المشرقة في حياة أهل البيت والصحابة، التي تدعو إلى الوحدة والأخوة والوفاق الإسلامي، مهما اختلفنا في الفروع والاجتهادات. وكان ذلك النشاط الثقافي والاهتمام الدعوي بتراث الآل والأصحاب، مدعاة لإنشاء العديد من الجمعيات الإسلامية في العالم العربي، لخدمة تراث الآل

---

[1] انظر: كتاب فروع الكافي/ للكليني، كتاب النكاح وكتاب الطلاق – باب المتوفي عنها زوجها، وكذلك كتاب الاستبصار/ للطوسي – باب العدة، وكتاب شرح نهج البلاغة/ لابن أبي حديد، وكتاب الشافي/ لعلم الهدى، وكتاب مناقب آل أبي طالب/ لابن شهر آشوب، وكتاب كشف الغمة في معرفة الأئمة/ للأربلي، وكتاب مجالس المؤمنين/ للشوشتري، وغيرهم من محدثي الأمامية فضلاً عن كتب ومصادر أهل السنة المعروفة كالطبري وابن كثير وابن سعد وغيرها.

والأصحاب، والتوجه الوحدوي الإسلامي بشكل أو آخر. ولقد كان للمدرسة السلفية (الحنبلية) حظ وافر للاهتمام بهذه الكتب والنشاطات الثقافية، بهدف الدفاع عن السنة وعن سيرة الآل والأصحاب، يليها في الاهتمام تيار الأخوان المسلمين ثم التيار الصوفي بدرجة أقل.

نعم أنا شيعي جعفري

لقد نشرت مجلة الشورى في التسعينيات مقالاً طريفاً للأستاذ أحمد الكاتب عنوانه (نعم أنا شيعي جعفري)[1]. وقد كتبه على خلفية الجدل الذي دار في الأوساط الشيعية حول كتابه (تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه)[2] الذي سلّط الضوء فيه على التطور السياسي في الفكر الشيعي، وأظهر أهمية دور الشورى في الفكر الإسلامي وأثرها في فكر الأئمة الأوائل في صدر الإسلام. وقد شكك الكتاب أيضاً في العديد من المرويات الضعيفة والأسطورية، التي وضعت في التراث الشيعي في عصر الأئمة، بسبب الظرف السياسي الذي ساد العالم الإسلامي في عصر الأئمة وعصر الغيبة، كما شكك في قصة ولادة الإمام المهدي محمد بن الحسن ووجوده من الناحية التاريخية، وقال إن الذين فرضوا وجوده، إنما دعاهم لذلك الاعتقاد (الوجود ثم الغيبة والانتظار) هي دعاوى فكرية وفروض

---

[1] انظر: مجلة الشورى/ لندن ١٩٩٦م.

[2] انظر: تطور الفكر السياسي الشيعي/ أحمد الكاتب، ط. لندن ١٩٩٧م.

فلسفية، بحجة أن تلك الفكرة والفرضية هي من ضروريات المذهب. وكان ذلك التشكيك من أهم الأسباب التي دعت بعض علماء الشيعة للتشكيك في عقيدة المؤلف وولائه للتشيع. فكان ذلك المقال هو الرد المناسب على تلك الدعوات التشكيكية. فأكد الكاتب شيعيته وجعفريته، رغم إنكاره للإمام الثاني عشر، وقال انه لا ضرورة للتلازم بين التشيع والإيمان بما لم يثبت العقل والتاريخ وجوده من الأئمة المثبتين في سلسلة الأئمة الاثني عشر. وعليه – على حد قول الكاتب – فيمكن للشيعي أن يحتفظ بانتمائه الشيعي ومذهبه الجعفري، حتى إذا لم يثبت له وجود الإمام الغائب. ودعا الكاتب إلى ضرورة دراسة التاريخ الإسلامي، لاسيما تاريخ الدولة الإسلامية في صدر الإسلام، وتاريخ ظهور الفرق والمذاهب الإسلامية، لتكوين رؤية علمية عما حدث في قرون الإسلام الأولى.

التأثير الثقافي للمنهج الوسط في نشر ثقافة الوحدة والتقريب

لقد كان كتاب (ثقافة الوسط) الذي نشر في بغداد سنة ٢٠٠٤م وفي عمان سنة ٢٠٠٦م، هو المكمل لمنهج الوسطية والاعتدال والتعايش والتسامح الإسلامي، الذي طرحه كتاب (النسب والمصاهرة) فيما يخص تراث الآل والأصحاب والصلة بينهما، والمعزز للثقافة المذهبية المتسامحة في النظر للأمور الخلافية بين السنة والشيعة. والكتاب عبارة عن مجموعة بحوث إسلامية حول الوسطية والاعتدال

في التراث والتاريخ الإسلامي في ضوء منهج الوحدة والتقريب، كانت قد نشرت متفرقة في بغداد قبل ذلك ببضع سنين[1].

لقد كان تأثير هذه الكتب التي نشرت في العقدين الماضيين، والمعبرة عن المنهج الإسلامي الوسط، الذي يؤمن بالوحدة والتعايش المذهبي، ضعيف ولا يلبي طموح التيار الوحدوي في تغيير الثقافة السائدة وتحجيم التشدد الطائفي، رغم أنها كانت تشكل رؤية إسلامية معتدلة جديدة، مغايرة للرؤية السلفية التي كانت سائدة في الوسط السني المعاصر، وتعبر عن محاولة فكرية جادة للتأصيل لمنهج الوحدة والتقريب، والعمل على إيجاد رؤية إسلامية معاصرة للتعايش البنّاء بين السنة والشيعة في زمن الفتن والصراع الطائفي، الذي تم تغذيته منهجياً – داخلياً وخارجياً – من قبل خصوم الإسلام. ولقد كانت تلك الكتب بالتضافر مع نظائرها، تدعو إلى دراسة الخلافيات والتوافقات بين الفريقين وتعميق النظرة فيها وفق مفهوم الوسطية والاعتدال القرآني، ولتأكيد حاجة المسلمين إلى الالتقاء والتعايش والتسامح حول مفاهيم الوحدة والإخوة والتآلف الإسلامي، بغية رصّ الصف الإسلامي وتوحيد الجهود في مواجهة التحدي الخارجي والغزو الفكري والاختراق الثقافي والسياسي الأجنبي المستمر، الذي كان ولا يزال يستهدف هويتنا ووحدتنا وثقافتنا ورسالتنا، كأمة كلّفت بالرسالة الخالدة لهداية الناس إلى المنهج القويم.

---

[1] انظر: كتاب ثقافة الوسط/ للمؤلف، ط. عمان/ عالم الكتب الحديث٢٠٠٦م.

ورغم كل تلك التحديات التي تحيط بالأمة والحاجة لتبني وتشجيع تلك التوجهات الوحدوية في الثقافة الإسلامية المعاصرة، والجهد الذي بذل من قبل الكثير من الكُتّاب والعلماء والدعاة، للتأسيس والتأصيل للوحدة الإسلامية، ومحاولات حلّ الخلاف المزمن بين المذاهب الإسلامية وفق المنهج الوسط، فان الاستجابة لذلك المنهج الوحدوي لم تكن بالمستوى المطلوب، إلا بقدر استغلال المحتوى الثقافي لهذه الكتب، لتحصين الثقافة الإسلامية والدعوة للتسنن السلفي والتبشير به، والتصدي للثقافة المتشددة والمغالية لدى الآخر. ولقد أضافت النظرة الحزبية والمذهبية القاصرة، مزيداً من الأحجام عن السير في مشروع الوحدة والتقريب القرآني وتعضيده، من قبل التيارات الإسلامية العاملة، وفي مقدمتها التيار السلفي (الحنبلي). أضف إلى ذلك فان التبعية المنهجية لتيار الأخوان للتيار السلفي، لاسيما في الخليج والعراق ، كان من بين الأسباب المهمة لمحاصرة التوجه الوحدوي المكرّس لمعالجة الملف الطائفي وتدعيم الوحدة الإسلامية، رغم كونه صاحب التوجه الوسطي والوحدوي في شعاراته وأدبياته منذ مرحلة التأسيس. وكذلك فان انزواء التيار الصوفي في حدود الزهد والعبادة والطقوس الدينية والمنهج التربوي، ومحاصرته ومحاربة دعاته من قبل التيار السلفي (الحنبلي) المهيمن على الثقافة السنية، بحجة قيام العقائد الصوفية على البدع والشركيات والأساطير والشطحات، دون تبنّي عناء التدقيق والتمييز بين المعتدلين والغلاة منهم، كان من بين

أسباب انتشار النظرة الأحادية المتشددة وتكريس ظاهرة التشرذم والتمزق بين المسلمين وإضعاف المشروع الوحدوي المعاصر، الذي يهدف إلى جمع المسلمين تحت مظلة الإسلام الواسعة.

لقد كان لتلك الأسباب المعرقلة ولذلك التدافع الميداني في الساحة الثقافية الإسلامية، الأثر الواضح في حالة الإحباط والصدمة التي أصابت الناس، وانسحابهم من التمسّك بالإسلام كحل وحيد ينقذهم من براثن الجهل والتخلف والتشرذم، وفي تراجع الصحوة الإسلامية التي وصلت إلى قمتها في أواخر القرن الماضي، وتناقص شعبيتها لصالح التوجه العلماني الغربي. لذلك فقد واجهت دعوة الوحدة والتقريب والتسامح الإسلامي حالة من الشك وفقدان المصداقية، وأصاب منهج الوسطية والاعتدال، الضعف والفتور في الوسط الإسلامي وتخلى عنه أصحابه وتدهورت شعبيته وتقلصت منابره. ولقد ازداد – مع الزمن – نفس الغلو والتشدد والتعصب، وغلبت على الناس نزعة الاستقطاب والاصطفاف الطائفي لدى الفريقين، وأصبحت فتاوى التكفير والإقصاء والظلم للآخر أكثر سماعاً واستمراءً، بعدما كانت تلك الدعوات الطائفية نادرة ومستهجنة قبل عقود قليلة. لذلك كان لا بد من الوقوف في وجه الغلو والتشدد ، الذي ذمّه الله ورسوله في القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿**يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا**

تقولوا على الله إلا الحق﴾[1]. وقال: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾[2]. وقال النبي ﷺ: إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، فان المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى[3]. وقال: خير الأمور أوسطها[4]. وقال: سددوا وقاربوا وأبشروا، وشيء من الدلجة (أي قيام الليل) والقصد القصد تبلغوا. وفي لفظ آخر: سددوا وقاربوا، واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وان أحب الأعمال أدومها إلى الله وان قل[5]. وقال: إن الله رفيق يحب الرفق، ويعين عليه ما لا يعين على العنف[6]. وقال ﷺ عن العصبية وكل أشكال التعصب الديني والعرقي: دعوها فإنها منتنة[7]. وقال النبي ﷺ لعلي: يا علي يهلك فيك اثنان، محب غالٍ ومبغض قالٍ[8]. وقال الإمام علي ﷺ: هلك فيّ رجلان: محب غالٍ ومبغض

---

[1] سورة النساء/ ١٧١.

[2] سورة المائدة/ ٧٧.

[3] رواه الحاكم والبيهقي والبزار والدارقطني.

[4] رواه الشوكاني في الفوائد المجموعة والعراقي في تخريج الإحياء.

[5] رواه البخاري ومسلم والبزار.

[6] رواه البخاري ومسلم.

[7] رواه البخاري.

[8] انظر: كتاب وصايا الرسول لزوج البتول/ السيد علي محمد الصدر.

غالٍ (أو قالٍ)[1]. وقال في تعريف الغلو: الغلو في الدين هو التعمّق في الرأي، والتنازع فيه، والزيغ والشقاق[2]. وغيرها من الأحاديث والأقوال المأثورة التي تنبذ الغلو والعنف والتعصب وتحث على الرفق والتلطّف والتوسّط والإحسان في الأمور.

لذلك لابد من العمل الجاد والمتعدد الجوانب لمعالجة الاستقطاب الطائفي والتعصب والتشدد والتنطع في العقيدة والسلوك والثقافة الإسلامية، بعد معرفة أسبابه ودوافعه في ثقافة المجتمع السائدة، لفتح الباب من جديد أمام مدرسة الوحدة والتقريب، التي كانت سائدة بين المسلمين ولقرون طويلة، وكذلك محاولة بثّ مفاهيمها الوحدوية في المجتمع من جديد. قال النبي ﷺ: لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه. وفي لفظ: إن دين الله تعالى لن ينصره إلا من أحاطه من جميع جوانبه. وفي لفظ آخر: إن الله لا يتم هذا الأمر إلا إذا أحيط به من جميع جوانبه[3].

لقد بُذلت جهود متواصلة من قبل دعاة الوسطية والوحدة والتقريب القرآني، لتدعيم ذلك التوجه الرباني الوحدوي، وإعلان البراءة من منهجية الاستقطاب والاستغلال الطائفي، لما يكتب من كتب ومقالات في التراث الوحدوي، وقطع الطريق أمام ثقافة الغلو والتشدد وتكفير

---

[1] رواه البوصيري/ إتحاف الحيرة المهرة.

[2] انظر: وسائل الشيعة/ الحر العالمي، ٦/ ٢٧١.

[3] رواه أبو نعيم والديلمي في دلائل النبوة.

المخالف، والعمل على وقف الصراع والصدام الفكري والثقافي الذي يسبّب الخصومة والتنافر بين الفريقين. وكذلك الوقوف بوجه محاولات تجيير الرؤى والمنهجيات الموجودة على الساحة الثقافية، لصالح الثقافة الوافدة والغريبة عن ثقافتنا الأصيلة، وفق منهجية الفوضى الخلاقة والصدام الحضاري والثقافي، وعدم السماح لثقافة العولمة والتبعية للغرب ومنهجه المناوئ لحضارة القرآن بالظهور والانتشار بين المسلمين.

لقد استطاع التيار الوحدوي – رغم قلة إمكانياته – كشف اللثام عن الأسباب الكامنة وراء ذلك الاستقطاب الطائفي والعرقي الممنهج، الذي يراد له أن يجعل العالم الإسلامي في حالة صدام وصراع بين قطبين معدين سلفاً بشكل كامل، لتحويل الخصومة والاستقطاب والقطيعة إلى واقع حقيقي ومبرر، من خلال إثارة الصراع وإراقة الدم البريء وإصدار الفتاوى الطائفية الجاهزة لاستباحة الآخر في دمه وماله وعرضه، كما حدث في الماضي القريب، ونراه اليوم في بقاع عديدة من العالم الإسلامي.

إن تسييس الدين والمذهب وتوظيفه لأغراض ومصالح سياسية وطائفية، هو من أبرز الأسباب التي أدت إلى شيوع الاستقطاب الطائفي والتعصب المذهبي بين المسلمين. وأدت إلى تحويل الشعوب العربية والإسلامية التي يتكون نسيجها الاجتماعي من طوائف وتيارات متنوعة، إلى كتل متصارعة ومتعارضة ومتخاصمة، بسبب

جعل الانتماء الطائفي فوق الانتماء الإسلامي والقومي والوطني. وحينما نعرض قضية تسييس الدين والمذهب على الشرع الحنيف، نجدها عمل باطل يدعو المسلم للتعاون على الإثم والعدوان، وهي عادة جاهلية كان النبي ﷺ قد حرّمها من خلال قلبه للمعنى الجاهلي إلى معنى إسلامي، في نصرة المظلوم ومنع الظالم عن الظلم، قال النبي ﷺ: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره.[1] لذلك فان تسييس الدين واستغلاله لمصلحة فئة أو حزب ومذهب، هو نصرة للظالم بالمعنى الجاهلي، وهو عمل سلبي لا يأتي بخير، بل يجرّ على الشعوب المسلمة الويلات والفتن والمصائب والصراع الدموي المدمّر، ويقضي على حالة الأمن والعدل والسلام ويفشي الفساد والظلم والصراع بين أفراد المجتمع. وان تسييس الدين والمذهب هو نوع من المداهنة في الدين، التي قد تخرج المسلم من الملّة، إذا ما اعتقد باستباحة دم الآخر (أخيه المسلم) وماله وعرضه، تحت مبرر الاختلاف المذهبي. فالمداهنة – كما يقول العلماء – هي أن نبذل الدين من أجل الدنيا، والمداراة هي أن نبذل الدنيا من أجل الدين. وشتّان بين المعنيين، فالأول عمل نفاقي خبيث لا يليق بالمسلم والثاني عمل صالح كريم يليق به وبخلقه القويم. وذلك لأن المسلم مجبول على الخير وعلى التعاون على البر والتقوى وبذل

[1] رواه البخاري.

الغالي والنفيس من أجل دينه وأمته، ويفعل ذلك مع المسلمين مداراة لوضعهم ومتطلباتهم وحاجاتهم ومساعدتهم والتعاون معهم على الخير والإصلاح، وهو بذلك يقوم بدوره الحقيقي في إعمار الأرض وعبادة الخالق سبحانه، لنشر نور الإسلام وخلافة الأرض على أكمل وجه. بينما جُبل المنافق والمداهن على بذل الدين وتغيير تعاليمه وأحكامه وثوابته، وعلى الاجتراح على الله ودينه القويم والإثم والعدوان على أخيه المسلم، من أجل مصالح دنيوية ومكاسب سياسية أو حزبية أو مذهبية، وهو ما نهى عنه الشرع الحكيم في كل المذاهب والأديان والأعراف.

نعم أنا عربي مسلم وسطي

إن رد الفعل الطبيعي لذلك الخلل المنهجي الذي فاقم المرض الطائفي المزمن، هو التواصي بالحق والصبر والتكاتف بين دعاة الوحدة من الفريقين، للعودة إلى منهج الوحدة والتقريب القرآني، والعمل على إيقاف حالة الاستقطاب الطائفي وعلى تقليل أثره على المسلمين بشتى السبل. وللوصول إلى ذلك الهدف، لابد من الإعلان عن الهوية القرآنية الأصيلة، في وجه ذلك الحراك الطائفي المتشدد، والتي تبدأ بالتعريف القرآني الواضح البسيط لملامح هويتنا العربية الإسلامية. إن التعريف الرباني للهوية سيحدد المنهجية الوحدوية، التي نحن بحاجة إليها للدعوة إلى الوسطية والاعتدال والتعايش البنّاء، وفق منهج الوحدة والتقريب القرآني، لتدعيم المشروع الوحدوي الذي نؤمن

به وندعو له. وللإعراب عن الهوية العربية الإسلامية، يمكن القول وبحزم وثقة ومن دون تردد أو استحياء، بأن الانتماء للإسلام والعروبة هو من الملامح الأصيلة لهويتنا الجامعة، فالإسلام هو الاسم الكريم الذي سمانا به نبينا إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿**ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس**﴾[1]. والعروبة هي صفة النبي محمد ﷺ، الذي بعث إلى الناس كافة بلسانها من أقدس بقاع الأرض في مكة وأرض الجزيرة العربية، قال تعالى: ﴿**الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل**﴾[2]. فالتراث والتاريخ العربي الإسلامي، منذ عصر إبراهيم وحتى اليوم، هو تراث وتاريخ مشترك يربط المسلمين جميعاً في العالم الإسلامي كله، سواء العرب منهم أم الترك والفرس والكرد والهنود وباقي القوميات المتآخية المتعايشة، بصبغته وحضارته الإسلامية التوحيدية الوحدوية.

إن المسلم ينبغي أن يكون عربي الهوية مسلم العقيدة وسطي المذهب. فقولك نعم أنا عربي مسلم وسطي تعني أنك عربي الانتماء والهوية، ولكن ليس بالمعنى العرقي والقومي، الذي قد يفهمه السامع

---

[1] سورة الحج/ ٧٨.

[2] سورة الأعراف/ ١٥٧.

لأول وهلة، وإنما عربي قرآني بمعنى رباني أصيل[1] كما بينه الله ورسوله في القرآن والسنة. لقد ورد وصف القرآن العربي واللسان العربي والحكم العربي في القرآن الكريم، وتكرر ذلك في عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]. وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [3]. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [4].

أي قراناً ولساناً وحكماً ربانياً صادقاً محكماً، معرباً عن الحق والنور الذي نزل به، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وفي المعنى ذاته يقول النبي الكريم ﷺ: أيها الناس إن الرب واحد والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أبٍ ولا أم، إنما العربية اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي[5].

فالعربية بهذا المعنى ليست عرق أو قومية تخص عرب الجزيرة والمشرق العربي فحسب، وإنما هي انتماء لمنهج الله

---

[1] انظر: كتاب الانتماء الحضاري والهوية الثقافية أو الإسلام العربي/ للمؤلف، طبع دمشق ٢٠٠٨م، حيث وضّح الكتاب الصلة بين العربية والربانية من الناحية اللغوية والدينية.

[2] سورة يوسف/ ٢.

[3] سورة الشعراء/١٩٥.

[4] سورة الرعد/٣٧.

[5] رواه ابن عساكر وابن كثير في تاريخهما عن معاذ بن جبل.

ورسالته والى لغة القرآن ومنهجه وتعاليمه الإلهية المنزلة، والعربي بهذا المعنى القرآني يشمل العربي والأعجمي، ممن آمن برسالة الإسلام الخاتمة وبأن الله هو رب العالمين، سواء كان من الناطقين بالعربية والمحبين لها، أم الباحثين عن الحق والحقيقة والمؤمنين بالله وكتابه العزيز، في كل الأرض، وليس فقط في الأرض التي أطلق عليه اصطلاحاً (أرض العرب أو العالم العربي). ومع ذلك فان أرض المشرق العربي أرض مقدسة، لأنها كانت مهد النبوة وقلب الإيمان النابض بالحياة والنور والتاريخ الأصيل، ولأنها أرض الأنبياء والمرسلين. وهي الأرض المباركة التي ورد ذكرها في القرآن، وأهم معالمها مكة والمدينة وبيت المقدس، وهي مواطن المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها، كما في الحديث الشريف: لا تشدّ الرحال إلا إلى المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا[1]. وهي الأرض التي شهدت مسرى النبي ﷺ ومعراجه من الفرات إلى النيل، وهما النهران اللذان الذين أشار لهما النبي في حديث المعراج. وقد شرفها القرآن ببعث الأنبياء منها وبإضافة البركة والقداسة إليهاً، وسماها (الأرض المباركة والمقدسة)، والتي شهدت تاريخ النبوة والوحي والرسالة منذ ظهور الإنسان على الأرض حتى الرسالة الخاتمة. قال تعالى: ﴿ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾[2]. وقال: ﴿سبحان

---

[1] رواه البخاري ومسلم.

[2] سورة الأنبياء/ ٧١.

الذي أسرى بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا انه هو السميع العليم﴾[1]. وقال: ﴿هل أتاك حديث موسى، إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى..﴾[2] وقال: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم، فتنقلبوا خاسرين﴾[3]. وكذلك قول النبي ﷺ في تحديد الأرض المباركة الإسلامية، أو أرض الجزيرة والعراق والشام ومصر، أرض الإسلام والعروبة والحضارة والتاريخ ورسالة التوحيد، كما جاء في حديث الإسراء والمعراج الذي رواه مسلم وغيره. فقد روى مسلم عن أنس بن مالك في حديث الإسراء والمعراج الطويل عن النبي ﷺ: انه رأى في معراجه أربعة أنهار، يخرج من أصلهما نهران ظاهران هما النيل والفرات، ونهران باطنان هما نهران في الجنة. وعليه فان انتماء المسلم للعربية بلسانه وحبه لنبيه وإتباعه لكتابه المقدس وارتحاله لأرضه وقبلته المقدسة. وفي القول المأثور والمروي عن النبي ﷺ، قوله في حبّ العرب والعربية:

---

[1] سورة الإسراء/ ١.

[2] سورة النازعات/ ١٦.

[3] سورة المائدة/ ٢١.

أحب العرب لثلاث، لأني عربي، ولأن القرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي[1].

أما المسلم الحنيف فقد ورد ذكره في القرآن بضعة عشر مرة، وهي التسمية اللائقة بالمؤمن الموحّد، والتي اختارها الله سبحانه، والإسلام ملة أبينا إبراهيم الخليل الذي سمانا مسلمين. قال تعالى﴿**وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾[2]. وقال: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة**﴾[3]. وقال: ﴿**ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله، وهو محسن، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً، واتخذ الله إبراهيم خليلاً**﴾[4].

والإسلام هو عقيدة جميع الأنبياء والمرسلين، لذلك لا ينبغي للمسلم أن يسمي نفسه باسم آخر يكافئ ويوازي الإسلام ديناً وعقيدة. قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسلام وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا**

---

[1] رواه الطبراني والحاكم، وهو حديث لا يرقى للحسن من حيث الصحة، ولكن معناه لا يتعارض مع القرآن والأدبيات الإسلامية التي تحث على حب العرب وقريش وبني هاشم.

[2] سورة البقرة/ ١٣٥.

[3] سورة البيّنة/ ٥.

[4] سورة النساء/ ١٢٥.

جَاءهُـمُ الْعِلْـمُ بَغْيًا بَيْنَهُـمْ﴾[1]. ويجدر بالمسلم أن يبتعد عن التسميات الطائفية والحزبية في التدليل على الدين والعقيدة. وإذا استقر اسم الإسلام الحنيف في الوجدان، فلا بأس حينئذٍ من الانتماء المذهبي أو النسبي أو القبلي أو القومي، لغرض التعارف والتكامل وتعلم الفقه والعبادة. قال تعالى: **﴿يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[2].

إن التسمية الفرعية يمكن أن تستخدم كَكُنْية، للتدليل على الشعب والقبيلة والمدرسة الفقهية، دون أن نرتبط بها تعصباً أو تفاخراً أو تمييزاً بين المسلمين. والحنيف هو المائل إلى الحق والمنحاز له والعائد إلى مرجعية القرآن وتعاليمه ولغته المقدسة، مقارنة مع أية لغة أخرى يتكلم بها بنو قومه أو غيرهم من الأمم والشعوب. والحنيفية أيضاً هي الانتماء إلى المنهج الرباني، كما ورد في القرآن الكريم، وتمثّله الأنبياء والمرسلون على الأرض، وفي مقدمتهم نبينا إبراهيم الحنيف أبو الأنبياء، وبقية الأنبياء والمرسلين من آل إبراهيم وآل عمران والنبي العربي الخاتم وآله وصحبه الميامين. قال تعالى: : **﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من**

---

[1] سورة آل عمران/١٩.

[2] سورة الحجرات/ ١٣.

المشركين﴾ [1]. وقال: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان في المشركين﴾ [2]. وقد قال نبي الرحمة في توكيد أهمية الحنيفية والانتماء إليها: إنما بعثت بالحنيفية السمحاء. وفي لفظ آخر: إن أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحاء[3].

أما تبني المذهب الوسطي الحنفي فهي مسألة اجتهادية، سواء أكانت اختياراً أم وراثة عن الأهل والمحيط الذي يعيش فيه المسلم. إن الإتباع المذهبي في الفقه والعبادات دون تعصب مذهبي، أمر واجب عند الكثير من العلماء والفقهاء، لأن المذاهب الإسلامية المعروفة، هي مدارس أصيلة متفق عليها، وطريقة شرعية للتفقه في الدين والتعبّد لله سبحانه. وهي بالطبع لا ترقى إلى مستوى الدين الواحد الذي يجمع المسلمين، ولكنها تثمر عن الفهم والفقه المطلوب بحده الأدنى للتكاليف الشرعية. وان الدعوة إلى ترك التمذهب والإتباع المذهبي التي شاعت في عصرنا، إنما هي دعوة متعسفة فيها نظر. وهي دعوة مبطّنة لصالح أحد المذاهب أو أحد الرموز الدينية، أو هي عملية تجهيل للمسلم بأمور دينه والتفقه فيه ــ سواء بقصد أم بغير قصد ــ فلا تعارض ولا تناقض بين الدعوة للوحدة الإسلامية عقيدة وديناً والإيمان بها وبين إتباع المذاهب الإسلامية المعروفة، سواء عند الجمهور أم

---

[1] سورة الأنعام/ ١٦١.

[2] سورة آل عمران/ ٦٧.

[3] رواه أحمد وأبو داود وأبو نعيم في حلية الأولياء.

الإمامية أم الظاهرية، ولا يمكن بأي حال لأحد المذاهب الإسلامية أن يستوعب أو يمثّل التسنن أو التشيع، فضلاً عن استيعاب الإسلام كله كدين، يمثّل رسالة الله الخاتمة على الأرض، ولكن المذهب يمكن أن يمثّل فئة من المسلمين لهم مدرستهم الفقهية والتعبدية، وهو جزء من كل يمثّل أمة الإسلام بمذاهبها وتياراتها وشعوبها وقبائلها، وهم سواسية مع غيرهم كأسنان المشط، ولا يقبل من أحد فرداً كان أم جماعة أم مذهب، أن يزكّي نفسه ويميّزها عن باقي المسلمين. ولا يمكن أن يُقبل من أحد الادعاء بالفوقية أو الانفراد بتمثيل الدين أمام الله أو الادعاء بأنه وجماعته يمثلون الفرقة الناجية في الآخرة، فان ذلك في علم الله سبحانه. والفرقة الناجية –كما يذكر العلماء– هي منْ تنطبق عليها صفات الإسلام والإيمان والإحسان، بغض النظر عن المذهب والتوجه. يقول الإمام حسن البنا، وهو يحث أتباعه على فضل إتباع المذاهب الإسلامية التي تأسست على هدي الكتاب والسنة: ينبغي على المسلم أن يتبع أحد المذاهب الإسلامية للتفقه في الدين، ما لم يصل درجة النظر في النصوص الشرعية[1]. ويقول أحد الفقهاء من أئمة التابعين: ليس الفقيه من يعلم الحلال والحرام، إنما الفقيه من يعرف أفضل المصلحتين وأخف الضررين[2]. وتلك هي درجة النظر التي ينبغي أن يصلها المسلم حتى يستغني عن إتباع أحد المذاهب

[1] انظر: رسالة التعاليم ورسالة العقائد / للشيخ حسن البنا.

[2] انظر: كتاب الوسطية في الإسلام/ د. يوسف القرضاوي.

الفقهية. ولذلك من الحكمة والمصلحة أن يتبع المسلم المذهب الفقهي الذي نشأ عليه وتعلم أصوله وتعرف على أحكامه، لأداء الشعائر والعبادات، لحين وصوله مرحلة التفقه في الدين والارتقاء إلى درجة النظر في النصوص الشرعية والله أعلم.

صور الإسلام الثلاثة في القرآن والسنة

إن بعض الناس يقصرون الإسلام على رسالة محمد ﷺ وعلى الإسلام الخاتم فقط، وهذا خطأ وتضييق لمفهوم الإسلام الذي عرضه لنا القرآن وأكدته السنة النبوية في العديد من النصوص الإسلامية المقدسة. لقد أطلق القرآن الكريم اسم الإسلام على ثلاثة معانٍ ربانية كريمة. وهي الإسلام العام وهو خضوع الكون لله سبحانه. والثاني هو الإسلام الخالد، الذي أنزله سبحانه على الأنبياء، وهو رسالة الأنبياء والمرسلين جميعاً. والثالث هو الإسلام الخاتم وهو رسالة النبي محمد للعالمين منذ بعثته ﷺ والى يوم الدين.

إن الإسلام الكوني يشمل جميع المخلوقات في الكون، لأن دينونة الخلق وعبوديتهم وخضوعهم بالفطرة هي لله رب العالمين، وان إسلامهم – أي استسلامهم – له دون غيره سبحانه. وهو الخضوع التام لكافة المخلوقات والكائنات على الأرض وفي كونه الفسيح لله سبحانه. والإسلام الكوني يعني التسليم والخضوع والانقياد لمشيئته المطلقة، والتسبيح والعبادة له سبحانه، بما نعلم وما لا نعلم من طرق التسبيح والعبادة التي يلهمها الله سبحانه لمخلوقاته التي لا تحصى في

الكون. وهو بهذا المعنى يشمل جميع ما خلق الله في هذا الكون الفسيح، في السماوات وفي الأرض. فالشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، كلها مخلوقات مسلمة لله، والملائكة كلهم مسلمون لله، قال تعالى: ﴿**ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات، ومن في الأرض، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب، ومن يهن الله فما له من مكرم، إن الله يفعل ما يشاء**﴾[1]. وقال: ﴿**يسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، وان من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، انه كان حليماً غفوراً**﴾[2].

والمعنى الآخر للإسلام الذي يعبّر عن صورته الثانية، هو أنه دين الأنبياء والمرسلين جميعاً، ورسالة التوحيد التي بشّروا بها الناس، من عصر آدم عليه السلام إلى عصر النبي ﷺ. والإسلام بهذا المعنى هو كل رسالة أرسل الله بها إلى رسولٍ من رسله، وكل وحي أوحاه الله إلى نبي من أنبيائه. وان كل نبي من السابقين هو مسلم، وجاء بالإسلام، وان دينه هو الإسلام، ورسالته رسالة الإسلام، وأتباعه الذين آمنوا به هم المسلمون. إن أتباع نوح عليه السلام مسلمون، وأتباع إبراهيم عليه السلام مسلمون، وأتباع موسى وهارون عليهما السلام – أي بنو إسرائيل – مسلمون أيضاً، وكذلك أتباع داوود وسليمان وعيسى عليهم السلام كلهم

---

[1] سورة الحج/ ١٨.

[2] سورة الإسراء/ ٤٤.

مسلمون، مثل أتباع محمد ﷺ لا فرق بينهم، فهم كتائب الإسلام الخالد عبر الزمن، منذ عصر آدم وحتى قيام الساعة. قال تعالى: ﴿**وإن هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاعبدون**﴾[1]. ترى هل يمكن لدين أن يجمع كتائب الإيمان وأتباع الرسل في كل العصور بتلك الصورة التوحيدية الوحدوية الرائعة، ويجمع تراث الأنبياء وسيرتهم ورسالتهم للجبابرة والطغاة والظلمة بأن يسلموا لله الواحد الأحد، مثلما صوّر القرآن الكريم وقاله نبي الإسلام ﷺ ؟.

فالأنبياء كلهم مسلمون وأقوامهم كلهم مسلمون موحّدون بنص القرآن والهدي النبوي. قال تعالى مخبراً عن قول نوح لقومه: ﴿**فإن توليتم فما سألتكم من أجر، إن أجري إلا على الله، وأمرت أن أكون من المسلمين**﴾[2]. وقال عن إسلام إبراهيم: ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين، إذ قال له ربه أسلم قال: أسلمت لرب العالمين**﴾[3]. ويقول تعالى على لسان بني إسرائيل قوم موسى: ﴿**ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين**﴾[4]. وعن الحواريين أتباع عيسى وصحابته

---

[1] سورة الأنبياء/ ٩٢.

[2] سورة يونس/ ٧٢.

[3] سورة البقرة/ ١٣٠ – ١٣١.

[4] سورة الأعراف/ ١٢٦.

المقربين، قال تعالى: ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله، آمنا بالله، واشهد بأنا مسلمون، ربنا آمنا بما أنزلت، واتبعنا الرسول، فاكتبنا مع الشاهدين﴾[1]. وقال تعالى مخبراً عن إسلام الأنبياء والرسل أجمعين: ﴿قل آمنا بما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون﴾[2].

وقال النبي محمد ﷺ: الأنبياء أخوة، لعلّات أمهاتهم شتى، ودينهم واحد[3]. وفي الإسراء والمعراج صلى النبي محمد ﷺ بالأنبياء إماماً في بيت المقدس، مؤكداً بذلك أن دينهم واحد وأنه إمامهم وقائدهم وخاتمهم، في أروع تعبير رباني عن وحدة الدين والرسالة التي أرسل بها الأنبياء جميعاً. ويبين الرحمة المهداة ﷺ في حديث جميل آخر، أن رسالته هي الرسالة المتممة للرسالات السابقة، والمكملة لها، فيما يروي البخاري ومسلم، فيقول ﷺ: مثلي ومثل الأنبياء قبلي، كمثل رجل بنا بنياناً، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة، من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت تلك اللبنة، فأنا تلك اللبنة، وأنا خاتم النبيين[4].

---

[1] سورة آل عمران/ ٥٢ – ٥٣.

[2] سورة آل عمران/ ٨٤.

[3] رواه مسلم وأحمد.

[4] رواه البخاري ومسلم.

وأخيراً وفي صورته الحسنى التي ينبغي أن يعرفها الناس ويؤمنوا بها كما نزلت من عند الله، هي الإسلام الخاتم والرسالة الخاتمة الصافية الواضحة الخالية من التحريف والنقص، الذي أصاب بقية الكتب السماوية والرسالات الإلهية السابقة، بما استحفظ الناس من كُتب وزُبر ورسالات إلهية، قال تعالى: ﴿**بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء**﴾[1]. فلم يحافظوا عليها ويمنعوا عنها التغيير والتبديل والإضافة والحذف على أيدي النسّاخ والكتبة الذين غيّروا الكلم عن مواضعه في الكتب المنزلة على أنبيائهم، من الذين استعاذ منهم النبي (أرميا) نفسه، الذي عاصر الغضب الإلهي على بني إسرائيل، وتسليط الملك البابلي نبو خذنصر عليهم، بسبب كفرهم وكذبهم وانحرافهم عن منهج الإسلام. فأنذر قومه بالعذاب والعقوبة الماحقة التي لا تبقي ولا تذر، وهو يلعن أصحاب الأقلام الكاذبة[2]. قال تعالى: ﴿**من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه**﴾[3]. ودين محمد ﷺ هو الرسالة الخاتمة التي نزلت على قلب النبي العربي لتكون نسخة الإسلام الكاملة الخالية من التحريف والتغيير والناسخة لما قبلها، والباقية إلى يوم الدين. فدينه هو

---

[1] سورة المائدة/ ٤٤.

[2] انظر: العهد القديم، سفر أرميا.
وكتاب الظاهرة القرآنية والعقل/ للمؤلف، الفصل الأول.

[3] سورة النساء/ ٤٦ .

الإسلام، وأتباعه هم المسلمون، وهذه الصورة وهذا المعنى للاسلام هو المعروف عند الناس، واليه ينصرف معنى الإسلام عند استعماله. ولا تناقض بين استعمال الإسلام بهذا المعنى الخاص، واستعماله بالمعنيين السابقين اللذين ورد ذكرهما في القرآن أيضاً. لأن الإسلام هو دين الوجود كله، فهو دين البشر جميعاً، جاء به كل نبي من السابقين، وبه جاء خاتم النبيين، وبه ختمت جميع الرسالات، وبه نسخت جميع الشرائع[1]. إن الإسلام هو الدين عند الله، ورضيه لنا ديناً، وهو سبحانه الذي تعهّد بحفظه من التبديل والتحريف والتغيير، مهما حاول خصوم الإسلام أن يكيدوا ويخططوا لتبديله والقضاء عليه، لأنه الرسالة الإلهية الخاتمة، التي جعلها الله مهيأة وجاهزة لإنقاذ البشر في كل الأرض، حين يطلبون الهداية والنور والحق.

قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾[2]. وقال: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[3]. والإسلام بهذا المعنى الخاص بالرسالة الخاتمة، هو الدين المقبول عند الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإسلام وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ

---

[1] انظر: كتاب حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية/ د. صلاح الخالدي، صفحة ٧١.

[2] سورة المائدة/ ٣.

[3] سورة الحجر/ ٩.

﴿الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[1]. ومن لم يتبع الإسلام بهذا المعنى الخاص فهو على غير هدى، وأي دين غير الإسلام لا يقبل عند الله، قال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[2]. وقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار[3]. وقال تعالى عن إسلام إبراهيم ونفي يهوديته ونصرانيته: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾[4]. وقد أكدت الأبحاث اللاهوتية والتاريخية واللغوية، فيما يخص علوم الكتب المقدسة وتاريخ تدوين نصوصها وعلم مقارنة الأديان، بأن النسخ الأصلية لكتاب العهد القديم المكتوبة باللغة العبرية، وقبل ترجمتها إلى اللغات الأخرى قبل وبعد الألفية الأولى قبل الميلاد، كانت تطلق اسم الإسلام والمسلمين على الأنبياء السابقين لمحمد ﷺ، وعلى أتباعهم من الأقوام التي آمنت بدعوتهم ورسالتهم التوحيدية، وهو ما يتفق تماماً مع التسمية القرآنية، التي يرفضها معظم علماء الدين اليهود والنصارى وبدون أساس

---

[1] سورة آل عمران/١٩.

[2] سورة آل عمران/ ٨٥.

[3] رواه مسلم.

[4] سورة آل عمران/ ٦٧.

علمي[1]، إما جهلاً أو تعصباً وكرهاً للتسليم بمعطيات القرآن، التي تتحدى الموروث الثقافي اللاهوتي التوراتي. قال تعالى في قصة بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة: ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل: ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمَين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك**﴾[2]. ويقرر القرآن صراحة أن يعقوب عليه السلام كان مسلماً، وأن جده إبراهيم عليه السلام قد أوصاه بالإسلام. قال تعالى: ﴿**ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب، يا بني إن الله اصطفى لكم الدين، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾[3]. وينقل لنا القرآن الحوار الرباني بين يعقوب عليه السلام وبين بنيه، وهو على فراش الموت، فيقول تعالى: ﴿**أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي. قالوا نعبد إلهك واله آبائك، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، إلهاً واحداً ونحن له مسلمون**﴾[4]. وكذلك يقول تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿**رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا**

---

[1] انظر: كتاب محمد في الكتاب المقدس، وكتاب الإنجيل والصليب/ لمؤلفهما داود عبد الأحد، وكتاب القرآن يقوم وحده/ للمؤلف، وغيرها من المصادر والأبحاث الحديثة حول النصوص الدينية المقدسة وأصلها العبري والآرامي.

[2] سورة البقرة/ ١٢٧ – ١٢٨.

[3] سورة البقرة/ ١٣٢.

[4] سورة البقرة/ ١٣٣.

والآخرة، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [1]. أما موسى فقد طلب من قومه أن يسلموا لله ويؤمنوا به ويتوكلوا عليه، قال تعالى: ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا . .﴾ [2].

أما داود وسليمان، فقد كانا حاكمين مسلمين لله، ولا صلة لهم بالأساطير اليهودية والتوراتية، التي تجعلهم يهود ومؤسسي الدولة اليهودية في فلسطين، وقادة الشعب المختار بزعم التوراة المحرفة. وقد أكد القرآن مبدأ إسلام الأنبياء جميعاً، ومنهم هذين النبيين الكريمين، وشعبهما العربي المسلم من قبائل بني إسرائيل ومن كان معهم من المؤمنين. وان أسطورة هيكل سليمان اليهودية ليس لها وجود تاريخي، إلا في خيال اليهود الصهاينة، وهي من جملة الأساطير التوراتية الصهيونية المؤسسة لما يسمى بدولة إسرائيل، ولتبرير وشرعنة اغتصاب فلسطين من أهلها العرب الشرعيين[3]. وقد قال المفكر الفرنسي المعروف غوستاف لوبون في ذلك: ستبقى فلسطين من الناحية القانونية والتاريخية ملكاً للعرب باعتبارهم أصحابها الشرعيين. والهيكل في حقيقته ما هو الا بناء صغير من المسجد الأقصى بناه النبي سليمان عليه السلام ليكون مصلى له ولوزرائه

---

[1] سورة يوسف/ ١٠١.

[2] سورة يونس/ ٨٤ – ٨٥.

[3] انظر: الأساطير والمعتقدات المؤسسة لدولة إسرائيل/ روجيه غارودي.

وقادته وأتباعه المقربين، قد ضخّم ذلك المصلى وتوسّع الخيال الصهيوني في وصف شكله وبنائه، حتى بدا كأنه رمز مستقل عن المسجد الأقصى الذي باركه الله، كما بارك المسجد الحرام منذ عصر آدم، الذي بنا المسجد الحرام كأول بيت وُضع للناس يعبد فيه الله تعالى، ثم بنا المسجد الأقصى بعده بأربعين سنة، كما جاء في الحديث الشريف. وقد أعاد إبراهيم عليه السلام بناءهما، بعد أن جرفهما الطوفان في عصر نوح، وتهدّم بنيانهما بتقادم القرون، ولم يبق من بنائهما إلا القواعد، التي استند عليهما إبراهيم في إعادة البناء وتأسيس المسجدين من جديد، وهما المسجدان المباركان اللذان كانا مبدأ إسراء النبي ﷺ ومنتهاه، وكذلك معراجه الشريف. قال تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا، انه هو السميع البصير**﴾ [1]. وقد أقام سليمان عليه السلام في فلسطين وما حولها حكماً إسلامياً عادلاً ومنيراً، يسلم فيه الناس مع سليمان لله رب العالمين، ولم يكن حكماً يهودياً عنصرياً طائفياً. قال تعالى على لسان بلقيس ملكة سبأ في اليمن: ﴿**قالت رب إني ظلمت نفسي، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين**﴾ [2].

---

[1] سورة الإسراء/ ١.

[2] سورة النمل/ ٤٤.

أما آل عمران، من الأنبياء والصالحين والحواريين، من نبي الله زكريا ويحيى وأمه وخالته زوجة عمران وأم مريم، إلى مريم الصديقة البتول وابنها عيسى المسيح وأتباعه الحواريون ومن تبعهم بإحسان، فان نصوص القرآن التي تسرد قصصهم وإسلامهم كثيرة. ونبي الله عيسى عليه السلام هو آخر الأنبياء والمرسلين قبل بعثة محمد ﷺ نبي الإسلام الخاتم. وهو المبشّر الأكبر به وببعثته وانتصاره وهيمنته على الدين كله. قال تعالى: ﴿**وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم، مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين**﴾ [1].

وأخيراً يأمر الله تعالى النبي محمد ﷺ وأتباعه المسلمون والمؤمنون بتعاليم الكتاب العزيز، بقوله: ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**﴾ [2]. وقال: ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة، أنا ومن اتبعني، وسبحان الله، وما أنا من المشركين**﴾ [3].

---

[1] سورة الصف/ ٦.

[2] سورة الأنعام/ ١٦٢ – ١٦٣.

[3] سورة يوسف/ ١٠٨.

مفهوم الأمة الواحدة في المنظور القرآني

لقد ورد ذكر عبارة (الأمة الواحدة) في القرآن مرتين وفي آيتين متقاربتين في اللفظ والمعنى، في سورة الأنبياء وسورة المؤمنون، في سياق الحديث عن قصص الأنبياء السابقين لرسالة النبي محمد ﷺ. وهي قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إن هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاعبدون﴾[1]. وقوله في سورة المؤمنون: ﴿ وان هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاتقون﴾[2] .

وينتهي السياق في السورتين، بالإشارة إلى أن أتباع الرسل وأقوامهم الذين آمنوا بهم، هم كتائب الإيمان عبر العصور، التي تشكل الأمة الواحدة، التي هي بنفس الوقت أمة الإسلام الخاتم، كما أشار القرآن. ويذكرنا الله سبحانه، بأنه تعالى ربنا الواحد لا شريك له، وهو الخالق العظيم رب العالمين على امتداد الزمان والمكان. وهذه حقيقة قرآنية مهمة، تؤسس تصور متميز في ثقافة المسلم، بأنه جزء من أمة الإسلام الخالد الذي بعث به الأنبياء جميعاً، ودينهم دين واحد وربهم واحد ورسالتهم واحدة، وهم الأمة الواحدة المؤمنة بالله وكتبه ورسله، التي شكلت تلك الكتائب المباركة عبر الزمن، وفي شتى بقاع الأرض، منذ عصر آدم وحتى قيام الساعة، مما يعطي المسلم شعوراً

---

[1] سورة الأنبياء/ ٩٢.

[2] سورة المؤمنون/ ٥٢٦.

ربانياً وحدوياً فريداً مهما استوحش الطريق، ومهما عظمت الفتن والكروب من حوله، فيقرأ في القرآن وما يطمئن قلبه ويقرّ عينه بتلك الأمة الواحدة المؤمنة بربها عبر العصور.

تتناول سورة الأنبياء قصص بعض الرسل، فتتحدث عن قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه الوثنيين، بأسلوب مشوق مع بيان قرآني معجز ونصاعة متألقة وقوة حجة وبرهان.. وفي قصته وسيرته عبر وعظات. ثم تتحدث السورة عن الرسل الكرام (إسحاق ويعقوب ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذي الكفل وذو النون وزكريا وعيسى) بإيجاز، مع بيان الشدائد التي تعرضوا لها، وتختم ببيان سيرة سيد المرسلين محمد ﷺ. وقد سميت (سورة الأنبياء) لأن الله تعالى ذكر فيها جملة من الأنبياء الكرام في استعراض سريع، وذكر جهادهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله وتفانيهم في تبليغ الدعوة لإسعاد البشرية.

تتحدث السورة في الآيات من ٥١ إلى ٩٤ عن قصص الأنبياء وأقوامهم باعتبارهم يشكلون أركان الأمة الواحدة الربانية الممتدة عبر الزمان والمكان، والمستوعبة الزمان كله لوجود الإنسان على الأرض، والمكان كله أينما وجد الإيمان والتوحيد على الأرض. وحيثما كانت الرسالة ونشأت الدعوة إلى دين الله في العصور السابقة واللاحقة، على يد الدعاة والربانيين والأولياء الصالحين، ليس في أرض العرب والمسلمين فحسب، بل في كل أرض يذكر فيها اسم الله

وتدين بالعبودية له. وتلك الرؤية القرآنية لها تأثير عميق في شعور المؤمن، وتربط بين عصور الأنبياء وتجعلها في إطار واحد هو إطار الأمة الواحدة المرتبطة بالله ورسالته الخالدة. وحينها سيشعر بأنه جزء مهم من كتائب الإيمان عبر تاريخ الإنسان الطويل، ويتأمل قصص الأنبياء كما وردت في القرآن، باعتبارهم أبطال عالمه وحياته في الصراع بين الحق والباطل وما يواجهه من صعاب في طريق الدعوة الى الله سبحانه، ويعدهم القادة الميدانيين الذي رفعوا راية التوحيد في الأرض، يتقدمهم ويأمّهم النبي الخاتم محمد ﷺ، ويستخلص من جهادهم ودعوتهم العبرة والموعظة، ويستمد القوة منهم وهو يقرأ القرآن لمواصلة الطريق والوصول إلى الهدف الأسمى، ألا وهو حسن الخاتمة ودخول الجنة، وتحقيق العدل والسلام والسعادة في الأرض، بمعية من معه من المؤمنين، الذين يشكّلون في عصرنا الحاضر البقية الباقية من الأمة الواحدة، التي تشترك فيما بينها بوحدة العقيدة والدين ووحدة الرسالة والهدف والأخلاق. لأن أتباع الأنبياء جميعهم يعبدون إله واحد ودينهم واحد هو الإسلام الخالد.

قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءاً وذكراً للمتقين. الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون. وهذا ذكرٌ مباركٌ أنزلناه أفأنتم له منكرون. ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين. . . ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلةً وكلاً جعلنا صالحين. وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل

الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين. ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوءٍ فاسقين. وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين. ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له، فنجيناه وأهله من الكرب العظيم. ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوءٍ فأغرقناهم أجمعين. وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين... وأيوب إذ نادى ربّه أني مسني الضرُّ وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرٍّ وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمةً من عندنا وذكرى للعابدين. وإسماعيل وإدريس وذا الكفلِ كلٌّ من الصابرين. وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين. وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظنّ أنْ لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا اله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجّيناه من الغمّ وكذلك ننجي المؤمنين. وزكريا إذ نادى ربه ربّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين. والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آيةً للعالمين. إن هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم

فاعبدون. وتقطّعوا أمرهم بينهم كلٌ إلينا راجعون. فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون﴾[1].

وفي الآيات أعلاه يتحدث الله سبحانه عن الرسل ودورهم في الدعوة إلى دين الله، ثم يعرج على توكيد مفهوم الأمة الواحدة في وعي المؤمنين، ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ أي إن دينكم وملتكم التي يجب أن تكونوا عليها أيها الناس ملة واحدة غير مختلفة وهي ملة الإسلام، والأنبياء كلهم جاءوا برسالة التوحيد، قال ابن عباس: معناه دينكم دين واحد[2]. وتفسير ﴿وأنا ربكم فاعبدون﴾ أي وأنا إلهكم لا ربّ سواي فأفردوني بالعبادة. ﴿وتقطّعوا أمرهم بينهم﴾ أي اختلفوا في الدين وأصبحوا فيه شيعاً وأحزاباً، فمن موحد ومن يهودي ونصراني ومجوسي. ﴿كلٌ إلينا راجعون﴾ أي رجوعهم إلينا وحسابهم علينا، قال الرازي: معنى الآية، جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً، كما تتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه، تمثيلاً لاختلافهم في الدين وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى[3]. إن المسلم الرباني في القرآن هو كائن حيوي حضاري يمتد عبر التاريخ، وعمره يتجاوز آلاف السنين، كما يمتد في حركته وأثره الحضاري والديني ليشمل الأرض كلها،

---

[1] سورة الأنبياء/ ٤٨ – ٩٤.

[2] مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٢٠.

[3] انظر: تفسير صفوة التفاسير/ محمد علي الصابوني، المجلد الثاني.

مهما حاول الطغاة أن يصدوا الناس عن دين الله وينقصون الأرض من أطرافها. لذلك تتشابه أرواح المؤمنين من أتباع الرسل وتتماثل أخلاقهم وطباعهم وسبلهم ووسائلهم في تحقيق العبودية لله. إن دمج الزمن منهج قرآني فريد نلمسه في سور عديدة من القرآن، في العقيدة الواحدة التي بلّغها الرسل الكرام لأقوامهم. وفي سورة إبراهيم – مثلاً – نقرأ تعبيراً مجازياً ساحراً، يقدّم الرسل جميعهم في مشهد رائع ومؤثر أمام أقوامهم وكبرائهم من الطغاة الكافرين برسالاتهم، فيخاطبهم الرسل بلسانٍ واحدٍ – وهم مجتمعون – رغم اختلاف عصورهم. وبعد أن يدمج القرآن الزمن، يتقارب الزمان وتتداخل العصور في لحظة واحدة، في مواجهة متكررة بين الحق والباطل، فيكون الحق على لسان الرسل، والباطل على لسان الطغاة والمجرمين. وحين يندمج الزمن ويتصاغر في تصور المؤمن وهو يقرأ كتاب الله، حتى ينحصر في لقطة واحدة وفي عصر واحد، يستطيع أن ينتقل بقلبه وروحه إلى العصر الذي يعيشه، ويرى كتائب الإيمان المباركة التي يقودها الرسل، وكأنه مشهدٌ حيٌّ، لا تفصله عنه تلك الدهور المتطاولة في القدم، ويرى نفسه وكأنه أحد هؤلاء الأتباع والجنود لإحدى الكتائب الربانية تلك، يشارك في أحداثها وأعمالها وجهادها المتواصل، حتى يخيّل إليه أنه يخضع لتلك التوجيهات والأوامر الصادرة من قائده الأعلى سواء أكان نبياً أم أحداً من أتباعه الصالحين، يسعى مع إخوته المؤمنين لكي تتجلى إرادة الله في إزهاق

الباطل الذي يرعاه الطغاة، والفساد الذي يحدثه المجرمون. ونرى ذلك جلياً في سورة إبراهيم، وكأن الرسل جميعاً يقولون قولاً واحداً ويردون رداً واحداً على كيد الكافرين، رغم تباعد الأزمان والعصور بينهم، ويبلّغون رسالة واحدة إلى البشر على مدار التاريخ. وهم يعلنون عن منهج واحد هو منهج التوحيد وسبيل المؤمنين، مهما اختلفت أزمانهم وأجناسهم وثقافاتهم ومواطنهم. ويصل الإيحاء القرآني للمؤمنين إلى درجة أن نعيش حالة الحوار والجدال بين الرسل وبين خصومهم، وكأن الرسل تخاطبهم كشخصٍ واحد بلسانٍ واحد، لإقامة الحجة والبرهان على القوم ودعوتهم لتقبل رسالة الإسلام، في أبلغ تعبير وحوار بين الكفر والإيمان، لكي يستقر في قلب المؤمن وعقله، أن رسالة الله واحدة وأن الإله المعبود واحد وأن الأمة واحدة، لا تتغير بتغير الزمان والمكان، مهما تغيرت الأقوام والأمم عبر التاريخ الطويل لرسالة التوحيد في الأرض. ولقد تناولت سورة إبراهيم موضوع العقيدة وأصولها، وإن محورها الرئيسي هو (الرسالة والرسول). وتناولت دعوة الرسل بشيء من التفصيل، ووضحت معنى وحدة الرسالات السماوية، فالأنبياء جميعاً جاءوا لتشييد صرح الإيمان، وتعريف الناس بالإله الحق، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، فدعوتهم واحدة وهدفهم واحد، وان كان بينهم اختلاف في الفروع. وتناولت السورة أيضاً موضوع الرسل مع أقوامهم على مرّ

العصور والدهور، وحكت ما جرى بينهم من حوارات ومناورات انتهت بإهلاك الظالمين.

قال تعالى: ﴿ألم يأتكم نبؤا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب. قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى، قالوا إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطانٍ مبين. قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشرٌ مثلكم ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون. . . وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنّكم من أرضنا أو لتعودنّ في ملتنا، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾[1].

أما في سورة المؤمنون، فتتكرر فيها نفس الصورة الإيمانية التي استعرضتها سورة الأنبياء وكذلك سور القرآن الأخرى كسورة الأنعام وسورة إبراهيم. إنها صور ربانية يعرضها القرآن كل عصر من عصور الأنبياء الكرام، ليصل بنا إلى نفس النتيجة والهدف المنشود، ويضمنا من خلالها إلى الأمة الواحدة ذاتها، وفي الكتيبة الإيمانية التي قدّرها لنا، حسب العصر والزمان والمكان، فهنيئاً للسابقين الأولين من

[1] سورة إبراهيم/ ٩ – ١٣.

أتباع الرسل والأنبياء، وفي مقدمتهم أتباع النبي الأمي الرحمة المهداة وخاتم النبيين، من الآل والأصحاب ومن تبعهم بإحسان من الأولياء والصالحين السائرين على خطى الحبيب محمد ﷺ.

لقد عرضت سورة المؤمنون المكية قصص بعض الأنبياء والرسل الكرام، لكي يطمئن النبي محمد ﷺ ويسليه عما كان يلقاه من أذى المشركين، فذكرت قصة نوح، ثم قصة هود، ثم قصة موسى، ثم قصة مريم البتول وولدها عيسى المسيح، ثم عرضت عناد كفار مكة ومكابرتهم للحق. وأقامت الحجج والبراهين على البعث والنشور، فقصمت السورة ببيانها الساطع ظهر الباطل، الذي كان يتعصب له كفار قريش.

قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون. . . ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين. فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله، ما لكم من إله غيره أفلا تتقون. وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا، ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون. . . ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين. ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون. ثم أرسلنا رسلنا تترا، كل ما جاء أمة رسولها كذبوه، فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث، فبعداً لقوم لا يؤمنون. ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين. إلى فرعون وملأه فاستكبروا وكانوا قوماً

عالين. . . وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين. يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم. وان هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاتقون. فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون. فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾ [1].

والمعنى بعد أن استعرض قصص الأنبياء السابقين بدءاً من نوح وحتى عيسى ابن مريم، وكيف عانوا ولاقوا من الصعاب في طريق الدعوة إلى منهج الله سبحانه، يختم تلك القصص العطرة، بالنداء العلوي الكريم للرسل جميعاً، بقوله لهم: أيها الرسل كلوا من الحلال الطيب وتقربوا إلى الله بالأعمال الصالحة، والنداء بطبيعة الحال لكل رسول في زمانه، ووصى به كل رسول إرشاداً لأمته، كما تقول حين تخاطب تاجراً: يا تجار اتقوا الربا. ﴿إني بما تعملون عليم﴾ انه وعيد وتحذير، أي إني عالم بما تعملون، لا يخفى علي شيء من أمركم، قال القرطبي: شمل الكل في الوعيد، وإذا كان هذا مع الرسل والأنبياء، فما ظن كل الناس بأنفسهم؟[2]. ﴿وان هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاتقون﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد، وملتكم واحدة وهي ملة ودين الإسلام. ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾ أي أنا ربكم لا شريك لي فخافوا

---

[1] سورة المؤمنون/ ٢٣ – ٥٤.

[2] انظر: تفسير القرطبي ١٢/ ١٢٨.

عذابي ومقامي. ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا﴾ أي تفرقت الأمم في أمر دينهم فرقاً عديدة وأديانا مختلفة، هذا يهودي وهذا مجوسي وهذا نصراني، بعدما أمروا بالاجتماع. ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أي كل فريق منهم مغتبط بما اتخذه ديناً لنفسه معجب به، يرى أنه المحق الرابح، وان غيره المبطل الخاسر[1].

ملامح الأمة الوسط في القرآن وعصر النبوة

إن العصر الإسلامي في صدر الإسلام، هو عصر الأمة الوسط وعصر الخيرية التي بشّر بها القرآن، رغم كل ما يقال عن الأحداث السياسية والفتن التي حدثت في أواخر عصر الخلافة الراشدة. إن تلك الصراعات السياسية التي حدثت هي حقيقة واقعة لا يمكن تجاهلها، وهي أحداث طبيعية ومتوقعة في تاريخ الأمم، لاسيما وان الأمة كانت مقبلة على تقلّد دور قيادي واستثنائي بين الأمم في فترة متميّزة من تاريخها العريض، فالتوسع السياسي والاجتماعي الذي أعقب عصر الفتوح، ورد الفعل المعادي والتآمر المتوقع من الأمم المندحرة أمامها، كلها تجعل حجم تلك الصراعات وآثارها ضمن الإطار التاريخي الطبيعي، مع إسقاط المبالغات المتعمّدة التي دسّت، بسبب الصراع السياسي والحضاري بين الأمم المنافسة للعرب في صدر الإسلام، وسطوعهم الفريد تحت راية القرآن. ومع ذلك فان الاقتصار عليها في عرض التاريخ الإسلامي في تلك الحقبة، يعطي

---

[1] انظر: تفسير صفوة التفاسير/ محمد علي الصابوني، المجلد الثاني.

صورة غير حقيقية لذلك التاريخ. ويعرض صورة مشوّهة تحاول أن تستعيض الصورة القاتمة والمتعسفة أحياناً، بصور التاريخ المشرقة العديدة، والمنجزات الحضارية والعلمية المتعددة التي قامت بها في تلك القرون. وهذا ما حاول خصوم الإسلام -وعلى رأسهم المستشرقون- أن يوهموا به المسلمين، ليبنوا لهم منهجاً خاصاً في كتابة التاريخ، مستبعدين -عن قصد- بقية مجالات الحياة الإسلامية: العقدية والفكرية والحضارية والعلمية والاجتماعية وغيرها. ورغم ذلك فان العصر الإسلامي الأول قد تميّز بميزات أساسية، ينبغي الوقوف عندها. كان أهمها وحدة العقيدة والتصور الإسلامي، ووحدة التراث، ووحدة المرجعيات والأئمة والمجتهدين الأوائل، لمسلمي ذلك العصر، فضلاً عن عالمية الإسلام وعظمة دولته في تلك الحقبة، التي امتدت من الصين شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، وكذلك التطور الحضاري والرخاء الاقتصادي الذي صحب ذلك، فكان المسلمون قادة العالم وسادته لقرون عديدة.

تلك هي أهم المميزات التي اصطبغ بها هذا العصر المبارك، رغم التنافس السياسي الذي طبع ذلك العصر، لاسيما بين بيوت قريش الرئيسية، إذ أن الخلاف حول الحكم وأسلوبه لم يكن ليؤثّر على معتقد من انتمى إلى هذه الفرقة أو تلك. فكانت رموز ذلك العصر ورجاله مراجع مشتركة للتيارات السياسية التي نشأت فيما بعد، لاسيما كبار أهل البيت والصحابة وأبنائهم ومشاهير علماء التابعين وأئمة المذاهب الإسلامية، ولم يشذّ عن ذلك إلا فرق الغلو والتطرّف والطائفية، كغلاة الخوارج والسبئية والمزدكية والباطنية. أما المدارس والتيارات التي شكّلت فيما بعد مذاهب الجمهور والامامية والاباضية، فكانت تنتمي بشكل أو آخر إلى أحد رجالات ذلك العصر ورموزه، وان اختلفوا في

بعض التفسيرات والروايات الواردة عنهم. لذلك فإن تلك المرحلة هي بحق امتداد لعصر النبوة الزاهر، وان تراث تلك الحقبة هو التراث الإسلامي المبارك الذي حفظه أهل البيت والصحابة وتابعوهم وجمعوه ودوّنوه بأمانة ودقة، كما حُفظ القرآن الكريم في عصر الصحابة ودُوّن بدقة وتواتر ليس له مثيل.. فجمع واستقر في عهد الخليفة عثمان ﷺ وبإشراف كبار الصحابة كان على رأسهم علي ﷺ. وبحفظ الكتاب والسنّة، تحقق وعد الله سبحانه بقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1]. لذلك يمكننا الاطمئنان إلى تراث الإسلام الصحيح الذي دوّن وجُمع في ذلك العصر المنير، أما العصور التي تلت ذلك العصر، فان الأخذ من تراث تلك العصور ومن مروياتها من دون تحفّظ فيه نظر، وينبغي أن تعرض مروياتها للنقد والتمحيص سواء المرويات الدينية أم التاريخية، لاسيما بعد أن أصبح لتيارات الغلو والتشدد والفلسفة الوافدة شأن في حياة المسلمين، بعد انتشار أفكار المعتزلة والخوارج والباطنيين، وظهور الوضاعين والإخباريين المتحزبين وأصحاب البدع ومحاولاتهم المستمرة لتشويه التاريخ ورجاله في العصر العباسي الثاني وما تلاه.

لقد تميّز عصر صدر الإسلام أيضاً، بقوة الأواصر الطيبة والوشائج الحميمة، التي كانت تؤطّر حياة المسلمين وعلى رأسهم أهل البيت والصحابة والتابعون لهم، فكانت أواصر النسب والمصاهرة لأفراد ذلك العصر وقبائلهم وشعوبهم متداخلة، فضلاً عن الأخوة ووحدة العقيدة والجهاد المشترك الذي كان من ثماره أن فتح العالم أبوابه لنور الإسلام.. إن تلك الصورة المشرقة تؤكد التلاحم بين

---

[1] سورة الحجر/ ٩.

القبائل والأسر والأفراد الذين قادوا دولة الإسلام ونشروا رسالته، وكانت صلة الرحم والتردّد على الخلفاء، سواء للنصح أو المواصلة، مما يميّز العلاقة بين رجال ذلك العصر، رغم وجود نوع من الصراع والتنافس على الحكم أحياناً[1] .

في الحقيقة إن العودة إلى ذلك العصر المشترك وتراثه، يمكن أن يكون أحد المداخل المناسبة لإزالة الفرقة والتخندق بين المسلمين، وصولاً إلى الوحدة والتعايش البناء بين فرق المسلمين سواء المعتدلة منها أم المغالية، بعد أن تترك غلوها وتعصبها وتبحث في تراثها عن المنهج الأصيل الذي يعود إلى ذلك العصر ورجاله العظام. ولذلك فلابد من التعرّف على خصائص أمة القرآن في عصر الرسالة قبل استعراض دور الأمة الوسط في حياة المسلمين. إن مجتمع الصحابة في عصر الرسالة لم يكن مجتمعاً ملائكياً خالياً من المشاكل والأخطاء والاختلاف.. لكنه تميّز عن غيره في كيفية مواجهة تلك الأخطاء، بعمق إيمانه برسالته. وقد كانت آيات القرآن حين تنزل على قلب النبي ﷺ تصبح واقعاً يحيا بظلها المجتمع كله، وكان الهدي النبوي مفسراً ومكملاً لتعاليم القرآن، في غرس العقيدة في النفوس المؤمنة التي أحاطت بقائدها ونبيها محمد ﷺ. وكان مجتمع الصحابة أمةً تحيى بنور القران، فيبصرهم هذا النور بعيوبهم وبما ينبغي القيام به لتلافي الاختلاف والأخطاء والمشاكل التي تواجههم في بناء دولة الإسلام

---

[1] انظر: كتاب النسب والمصاهرة بين أهل البيت والصحابة/ للمؤلف، للوقوف على الأواصر الطيبة والعلاقات الودية التي كانت تسود مجتمع الصحابة والتابعين، مما يعطي صورة مشرقة لأمة القرآن، بعيداً عن الروايات الموضوعة والمدسوسة، التي حاول خصوم الإسلام بثّها، لتشويه التراث الإسلامي وسيرة الرجال الأعلام في صدر الإسلام.

الأولى. وفي السيرة العديد من الصور والأحداث التي ألهمت الأمة الكثير من الدروس والعبر، كما حدث في قصة أسرى بدر، وفي معركة أحد. وقد عرض القرآن تفاصيل معركة أحد وأسباب الهزيمة فيها، لتلافيها وتعليم المسلمين كيفية مواجهة الظروف الصعبة من خلال الأخطاء التي وقعت. وكذلك الأمر في قصة الثلاثة الذين خُلّفوا عن غزوة تبوك، وتداعيات محنة الإفك وأثرها الاجتماعي الخطير، التي فضح القران فيها عصبة النفاق وأثرهم الإعلامي السلبي في المجتمع الإسلامي[1]. وكذلك قصة تقسيم الغنائم بعد معركة حنين في الطائف، وغيرها من الأحداث التي شهدت اختلافاً في وجهات النظر أو اعتراضاً على موقف معين. وقد كانت تعاليم القرآن ومبادؤه هي المرجع والفيصل في الحكم والبتّ فيما يحدث بين المسلمين، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[2].

لقد امتازت أمة القران في عصر الرسالة بخصائص عديدة وفريدة بين بقيّة الأمم، جعلتها أهلاً للخيرية.. قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[3] فقيّد الله سبحانه الخيرية لأمة القرآن في أي زمان ومكان، بشرط القيام بأعباء الرسالة الخاتمة التي بلّغها الرسول الخاتم ﷺ، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله. لقد كان ذلك القيد الرباني تشريف وتكليف، تشريف بالخيرية وتكليف بالرسالة وتحمّل الأمانة، وتلك هي

---

[1] انظر تفسير سورة النور/ ابن كثير والظلال.
[2] سورة النساء/ ٦٥.
[3] سورة آل عمران/ ١١٠.

خلافة الأرض وإرشاد البشر إلى الهدى ودين الحق، وحين تفقد الأمة رسالتها أو تتركها، تفقد –حينئذ– خيريتها أيضاً. ومن مميزاتها أيضاً أن تكون شاهدة على الأمم هادية لهم نحو الحق والنور، قال تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾[1]. فهذه الأمة حين تعي رسالتها ودورها بين الأمم، تكون شاهدة عليهم أمام الله سبحانه، ويكون الرسول شهيداً عليها وعلى مدى تحمّلها للأمانة ومدى صحة العقيدة الربانية التي تحملها، وتلك هي من المعالم الرئيسة للأمة الوسط.

ومن الخصائص البارزة الأخرى لأمة القرآن التي نلمس آثارها في الكتاب والسنة وسيرة المصطفى ﷺ وحياة الصحابة هي: الربانية.. والإتباع.. والوسطية.. والايجابية.. والعزّة الإيمانية.. وتشتمل الربانية على: التوحيد والإخلاص والعلم والشورى والعدل والإحسان والتجرّد والزهد، وبقية الصفات التي تنضوي تحت مفهوم الربانية. قال تعالى :﴿ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾[2].

والإتباع هو: أن يكون القرآن والسنة الصحيحة مرجع كل مسلم في التعرف على أحكام الإسلام، وأن يُفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية، ويرجع في فهم السنة إلى رجال الحديث الثقات. قال تعالى: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر

---

[1] سورة البقرة/ ١٤٣.
[2] سورة آل عمران/ ٧٩.

وذكر الله كثيرا ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين ﴾[2] . ومقتضى الإتباع أيضاً: العبودية والتسليم والطاعة.

أما الوسطية فتقتضي: حمل الرسالة والأمانة، وخلافة الأرض، والشهادة على الناس والدعوة إلى السلام والمحبة والخير، والبعد عن الغلو والتطرّف والخصومة والتعصب.. قال تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا . . ﴾ وقال تعالى: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾[3] . ومنهج الإسلام بطبيعته منهج وسط بين العدل والرحمة، بين الإفراط والتفريط، بين الروح والجسد وبين العقل والغيب.. والوسطية ضد الغلو الذي جنح إليه الإنسان في تاريخه الطويل، حين كان بعيداً عن هدى الله ونوره، فغلب على تفكيره ومعتقده الزيغ والانحراف، بدافع الهوى والتعصب والتقليد الأعمى. وتقتضي الوسطية أيضاً: التوازن والشمول والواقعية والتكامل ..[4] .

---

[1] سورة الأحزاب/ ٢١.

[2] سورة آل عمران/ ٣١-٣٢.

[3] سورة آل عمران/ ١٠٤ .

[4] انظر أيضاً حول مفهوم الوسطية الرباني: تفسير صفوة البيان والظلال، لقوله تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا . . ﴾ وابن كثير في تفسير : ﴿ وان هذا صراطي مستقيما . . ﴾ سورة الأنعام/ ١٥٣ ، وكذلك كتاب (محمد ابن الحسن الشيباني وأثره في الفقه) / د. محمد الدسوقي/ كلية الشريعة- جامعة قطر- دار الثقافة ص٢٥٩، وابن تيمية في: السياسة الشرعية / ص١٩، وكتاب أصول

أما الايجابية التي اتصف بها المجتمع الإسلامي في عصر الرسالة وما بعده، فمن مظاهرها: الجدّية والحركية، ومن أبرز صورها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقتضى الايجابية في حياة الأمة أيضاً: الدعوة إلى الحق والخير، والعمل المتواصل، والجهاد والتضحية والثبات والأخوة وغيرها من الصفات المأثورة في حياة المسلمين.

أما العزّة التي هي سمة المؤمن وشعاره، فقد وصف الله سبحانه جيل الصحابة ومن جاء بعدهم من أهل الإيمان بالعلو والعزّة، فقال تعالى: ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾[2]. ويؤكد القرآن أن العزّة للمؤمنين مهما تجبّر الباطل وأحكمت قوى الطاغوت سيطرتها على الأرض، فالمسلمون أعزّة على الكافرين أذلّة فيما بينهم، ودينهم وشريعتهم ومنهجهم هو المنهج الرباني الأصيل، المهيمن على بقية المناهج والشرائع والأديان والكتب، ولهذه الأمة العزّة بين الأمم، لأنها أيضاً أمة الرسالة الخاتمة، وهي خير أمة أخرجت للناس ما دامت تؤدي رسالتها – هذه – بين الأمم.. وتاريخ أمة القران ليس تاريخها السياسي حسب، كما انه ليس تاريخ الدولة الأموية أو العباسية أو دولة المماليك أو الدولة العثمانية أو الصفوية.. إنما هو – دائماً – تاريخ (الأمة الإسلامية) على مدار الزمن، ومعياره الدائم: مدى قيام هذه الأمة برسالتها، وهل كانت مؤدية لواجبها في

الخلاف العلمي/ د. محمد الفرفور/ دار المأمون – بيروت، ص٤٧ إذ يقول: والوسط أم الكتاب وأصل الشريعة وعمادها.

[1] سورة آل عمران/ ١٣٩ .

[2] سورة المنافقون/ ٨ .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترسيخ قواعد الإيمان بالله ؟..أم إنها متقاعسة عنها، ناكلةً عن مقتضياتها ..[1]. لقد كانت أمة القرآن في عصر الرسالة وما بعده، قائمة بواجبها مؤدية لرسالتها أحسن قيام حتى استطاع الأعداء إضعافها وإبعادها عن رسالتها شيئاً فشيئاً، فظهر الغلو وانتشرت البدع والمستحدثات والأفكار الدخيلة، وتآمر الأعداء على تمزيقها وإسقاطها، والتخطيط لإفساد عقيدتها الأصيلة، واستبدال حضارة القرآن الربانية التي بقيت هي الحاكمة لسلوكها بحضارات وضعية ومادية. وكانت اليهودية والرومية قد أنبتت ما أنبتت في جسم الأمة ما يبث السمّ الزعاف ويولد الفتن والاضطراب في أوصالها.

ومن خلال استلهام مميزات وخصائص أمة القرآن، يأتي دور الأمة الوسط في الوقوف بوجه الانحراف والبعد عن الله ومعالجة الغلو والتشدد والتعصب والاستقطاب الطائفي الذي يعصف بالأمة اليوم. ويأتي دور التصور المعتدل المستمد من تعاليم القران والسنة والتراث الصادق لرجال ذلك العصر، لمعالجة أسباب الوهن والتخلف الذي تعيشه الأمة.

ولكي نحيط بخصائص الجيل القرآني الفريد في صدر الإسلام، لابد من فرز الأمراض الاجتماعية والآثار الجانبية التي وجدت في المجتمع الإسلامي عبر قرون الانحطاط والتخلف، لتجاوز آثارها الخطيرة، والدعوة إلى التمسّك بالمنهج الرباني الذي يدعو إليه القرآن الكريم، وفق مفهوم الوسطية والاعتدال وآلية إفشاء السلام الاجتماعي، للوصول إلى طريق الوحدة والتعايش البناء بين المسلمين.

---

[1] كيف نكتب التاريخ الإسلامي/ محمد قطب، ص٢٠ .

قال تعالى: ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾[1].

المنهج الوسط والمذهب الحنفي وصلته بالمذاهب الأخرى

يشير الله تعالى في آية الأمة الوسط في سورة البقرة، إلى وسطية أمة الإسلام ورسالته وتعاليمه الواقعية المتوازنة الشاملة، فهي أمة وسط في عقيدتها ورؤيتها وسلوكها، وسط بين الغيب والشهادة، وبين الروح والمادة، بين مادية اليهود وتشدّدهم وإفراطهم في التشريع وبين تساهل النصرانية وأخلاقها وتسامحها إلى حد التفريط في الحقوق وإقامة العدل بين الناس، وكذلك وسط بين الغلو والاستقطاب والتعصب الديني وبين الإلحاد والعلمانية المادية واللادينية، مؤكداً أن المنهج الوسط وروح التسامح والتعايش هو منهج الإسلام، كما كان عليه النبي المصطفى ﷺ والسلف الصالح من الآل والأصحاب وجيل التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وهذه الوسطية الربانية تأهلها لتكون شاهدة على الناس بمختلف حضاراتهم وعقائدهم وتوجهاتهم، تزنهم بميزان حضارة القرآن وتعاليمه السامية. قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾[2].

---

[1] سورة المائدة/ ٢.

[2] سورة البقرة/ ١٤٣.

ولعل المذهب الحنفي هو المذهب الوسط الراجح – في نظري– لموازنته بين النص والاجتهاد بالرأي، فيما ليس فيه نص محكم، والذي يمثل مدرسة الوسط. وهو المذهب الأكثر انتشاراً بين المسلمين، منذ العصر العباسي وحتى اليوم، يليه المذهب الشافعي، ثم المالكي، ثم الحنبلي في مذاهب الجمهور الأربعة المعروفة. ولعل المذهب الأشعري في مجال العقيدة قد تفرّع عن المذهب الحنفي، وإن الكثير من أصوله واستنباطاته العقدية تعود إلى مدرسة الرأي والمذهب الحنفي بشكل أساسي، والى بقية المذاهب بدرجة أقل، سوى المذهب الحنبلي ومدرسة النص والحديث، التي كانت أساس المدرسة المسماة اصطلاحا اليوم بـــ (المدرسة السلفية). والقياس ذاته ينطبق على مدرسة الزهد والسلوك والتصوف الرباني، فهي تعود أيضاً إلى المذهب الحنفي بالدرجة الأولى، ثم يليه المذهب الشافعي، الذي يعد أقرب المذاهب الفقهية للمذهب الحنفي. وكذلك يعد المذهب الزيدي الامامي أقرب المذاهب بعد المذهب الشافعي إلى المذهب الحنفي، وذلك لمعاصرة الإمام (زيد بن علي) للإمام (أبي حنيفة النعمان)، والتقائهما في الكوفة لمدة سنتين في ثورة الإمام زيد وأحداث الكوفة، التي أدت إلى استشهاد الإمام زيد فيها، في عهد الخليفة الأموي (هشام بن عبد الملك). ولذلك قال أبو حنيفة في فضل تلك الصحبة مع زيد بن علي: لولا السنتان لهلك النعمان. ومن تلك الصحبة والصلة الودية والتقارب المنهجي بين المذهبين جاء التقارب والتداخل في الأصول

والقواعد الفقهية والعقدية التي بني عليها المذهبان، رغم انتماء المذهب الزيدي لمدرسة أهل البيت وانتماء المذهب الحنفي لمدرسة الجمهور.

العقيدة الأشعرية السلفية هي عقيدة ٨٠% من علماء الأمة

ومن المعروف تاريخياً أن المدرسة الأشعرية ظهرت وتبلورت على يد مؤسسها الإمام أبي الحسن الأشعري (الحنفي المذهب) والذي قارع المعتزلة والفلاسفة العقليين وهزمهم فكرياً، وأعلن مذهبه الأشعري الحنفي في أواخر القرن الثالث الهجري. أما بالنسبة لمدرسة الزهد والتصوف التي نشأت في البصرة على يد الإمام التابعي الحسن البصري كمدرسة تعبدية، لتعميق الصلة بالله والبعد عن حياة الترف والملذات، التي كثر إغراؤها وتأثيرها بين المسلمين، بعد عصر الفتوح والغنى والاستقرار، الذي شهده العالم الإسلامي، بعد عصر الخلافة الراشدة، وصولاً إلى الربانية ودرجة الإحسان. والإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه، فأن لم تكن تراه فأنه يراك، كما جاء في الحديث الشريف[1]. وقد تطوّرت هذه المدرسة وتبلورت في العصر العباسي الثاني، على يد مجموعة من الزهاد

[1] حديث جبريل المشهور الذي رواه البخاري ومسلم، حين جاء النبي ﷺ وأصحابه بهيئة رجل غريب لم يبدو عليه أثر السفر، وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وعن الساعة.. وبعد أن رحل قال عنه النبي ﷺ: هذا جبريل جاءكم ليعلمكم أمور دينكم.

والعباد أشهرهم الإمام (أبي حامد الغزالي) ثم الشيخ (عبد القادر الجيلاني) في القرن الخامس الهجري. وهي المدرسة التي كانت تعنى بالزهد والتزكية والسلوك وعلم الأخلاق في الإسلام[1]. وقد داخل مدرسة الزهد والتصوف ــ مع الزمن ــ شي من الغلو والعقائد الفلسفية المستمدة من الفلسفة اليونانية والتعاليم المسيحية، شأنها شأن غيرها من المدارس والمذاهب، التي تحتاج إلى مراجعة وتنقية وتأصيل، وفق مرجعية الكتاب والسنة. وقد حافظ التصوف الرباني الوسط على الورع والتقى والسلوك الزاهد السليم، البعيد عن البدع والشركيات والشطحات، التي دخلت عقائد الغلاة، وكان قدوتهم في ذلك سيرة المصطفى ﷺ، وسيرة السلف الصالح، لاسيما سيرة الإمام علي والحسن البصري والجنيد البغدادي وإبراهيم بن أدهم وبقية الزهاد والعباد في عصر التابعين وتابعيهم.

إن المذهب الشافعي الذي ظهر على يد مؤسسه الإمام محمد بن إدريس الشافعي الذي ولد في منتصف القرن الثاني الهجري – وهي سنة وفاة الإمام أبي حنيفة – ودرس الفقه على يد تلامذته في بغداد، يشترك مع المذهب الحنفي في الكثير من القواعد والأصول الفقهية. ويتمايز المذهبان عن المذهب الحنبلي راعي مدرسة النص والحديث، الذي جاء في ترتيبه الزمني آخر المذاهب الفقهية الأربعة لدى الجمهور، حيث ظهر على يد مؤسسه الإمام (أحمد بن حنبل) في

---

[1] انظر: كتاب في التزكية والسلوك/ الأستاذ عدنان سعد الدين.

النصف الأول من القرن الثالث الهجري، يتمايز المذهبان عنه بالمنهج الوسط بين النص والاجتهاد، ويمتازان بمراعاة المقاصد الشرعية والمصالح المرسلة والاهتمام بالرأي والعرف والقياس بدرجة واضحة. وهي غير موجودة لدى أتباع المذهب الحنبلي (السلفي)، الذي جعل الحديث الضعيف أولى بالإتباع وأكثر حجّية من الاجتهاد بالرأي، وهو ما خالف فيه باقي المذاهب الإسلامية لدى الجمهور والإمامية وغيرها من المذاهب.

ومن الحقائق التاريخية المعروفة، أن جلَّ الحنابلة في العصر العباسي كانوا من المحدّثين والقراء وكتّاب التراجم والسير، بينما ساد المذهب الحنفي والشافعي بين الفقهاء والحكماء والقضاة والقادة، الذين اتخذوا العقيدة الوسطية الأشعرية منهجاً عقدياً وفقهياً في فهم الدين ومقاصده والعمل بمقتضاها. ومن أبرز هؤلاء المشاهير من العلماء والفقهاء والقادة، الذين يشكلون النسبة الأكبر بين مشاهير ورموز جمهور المسلمين من العلماء والفقهاء والقادة في التاريخ الإسلامي من أتباع المذهب الأشعري الوسط: الإمام الأشعري والباقلاني والغزالي والأيوبي والجيلاني (الذي تحوّل من المذهب الحنبلي إلى المذهب الشافعي حين كان يدير المدرسة المخرّمية في بغداد) وابن الجوزي والنووي والأصمعي والآلوسي وغيرهم كثير.. ومن المعاصرين: الشيخ محمد عبده ومحمد أبو زهرة ومحمد رشيد رضا وحسن البنا ومحمد الخضري وأبو الأعلى المودودي وأبو الحسن الندوي ومحمد

إقبال وسعيد النورسي وعمر المختار وعبد القادر الجزائري والمهدي السوداني وأمين الحسيني ومحمود شلتوت وسيد قطب ومصطفى السباعي وسعيد حوى ومحمود الصواف وعبد الحليم محمود ومتولي الشعراوي ومالك بن نبي وحسن خالد وصبحي الصالح وعبد الكريم المدرس ومحمد الغزالي وعبد الحميد كشك ومحمد قطب وجاسم مهلهل وفتحي يكن وعبد الكريم زيدان وحسن الترابي وعبد المجيد الزنداني وغيرهم كثير من العلماء والفقهاء والدعاة في العالم العربي والإسلامي.

الأحناف والحنابلة والتنافس على الصدارة بين المذاهب الإسلامية

لقد استمر المذهب الحنفي وفرعه الأشعري في موقع الصدارة وفي مقدمة المذاهب الإسلامية، يليه المذهب الشافعي بدرجة أقل، بالرغم من اتساع الدور الحنبلي على يد المجدد الحنبلي الشيخ الفقيه (أحمد بن تيمية) بعد سقوط بغداد على يد المغول في القرن السابع الهجري، سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م، وما أعقب ذلك الحدث الذي هزّ العالم الإسلامي، من أحداث وفتن وصراعات وحروب خلال تلك الفترة العصيبة، التي أعقبت سقوط الدولة العباسية. وبعد قيام الدولة العثمانية وتوسّعها بشكل إمبراطورية ضمت معظم العالم الإسلامي، تبنّت الدولة العثمانية المذهب الحنفي، الذي أضفى الشرعية على الحكم العثماني، واعتبر العثمانيين هم الورثة الشرعيون للخلافة العباسية، بعد استلامهم البروتوكولي لسيف النبي ﷺ وختمه وارثه

وتراث الخلفاء من بعده، من الخليفة العباسي في القاهرة من قبل السلطان العثماني سليم الأول. فتسمّت حينئذ بدولة الخلافة والسلطنة، وأصبحت الممثلة الشرعية للخلافة الإسلامية وللدولة الإسلامية العظمى في ذلك العصر. وكان لذلك التبني المذهبي والشرعي أثره في اتساع نفوذ المذهب الحنفي في العالم الإسلامي بشكل فاق ما كان عليه في العصر العباسي، مقارنة مع المذاهب الأخرى، منذ ظهور الدولة العثمانية وتوسّعها في القرن التاسع الهجري، حيث ضمت معظم العالم الإسلامي من المحيط الأطلسي وحتى الهند وجنوب شرق آسيا، وحتى إيران لم تستطع أن تكون بمعزل عن سلطان العثمانيين، إلا بعد ظهور الدولة الصفوية في القرن الحادي عشر الهجري (السادس عشر الميلادي).

واستمر المذهب الحنفي (فقهاً) والأشعري (عقيدة) في موقع الصدارة بين باقي المذاهب الإسلامية، حتى بعد ظهور المجدد الثاني للمذهب الحنبلي في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، وهو الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) وإحياء الدعوة للمذهب الحنبلي ومدرسة النص والحديث في الجزيرة والخليج والمشرق العربي. لقد كانت ومازالت نسبة أتباع المذهب الحنبلي وما سميت اصطلاحاً بـــ (الدعوة السلفية) نسبة محدودة لم تتجاوز الـــ (١٠%) من المسلمين، في حين كانت نسبة أتباع المذهب الحنفي لا تقل عن (٥٠%) في العصرين

العباسي ثم العثماني وكذلك في العصر الحاضر، يليه المذهب الشافعي ثم المالكي ثم بقية المذاهب كل حسب نسبة أتباعه.

الانفراد المذهبي ومحاربة التعددية المذهبية والثقافية

إن من يريد الإصلاح والدعوة إلى الله ودينه القويم، بالكلمة الطيبة والمجادلة بالتي هي أحسن، ينبغي أن لا ينصب نفسه قاضياً وحاكماً على الناس وعلى المذاهب الأخرى، وعلى التيارات والأحزاب والجماعات، لاسيما المخالفين له في الرأي والاجتهاد والتوجه والاعتقاد، ما دام يقرّ هؤلاء بالتوحيد الصريح، ويرفعوا راية لا إله الا الله محمد رسول الله، ويعتقدوا بمرجعية الكتاب والسنة الصحيحة، وقد ورد عن أبي حنيفة والشافعي ومعظم أصحاب المذاهب الإسلامية، قولهم المشهور: إن صحّ الحديث فهو مذهبي, وكذلك قول الشافعي: رأيي صحيح قابل للخطأ ورأي خصمي خطأ قابل لأن يكون صحيحاً. وفتوى زيد بن علي مؤسس المذهب الزيدي الإمامي: بجواز إمامة المفضول بوجود الفاضل. مما يعني شرعية خلافة الخلفاء الراشدين السابقين للإمام علي ﷺ. وقول الإمام جعفر الصادق المشهور في النهي عن الخصومة في الدين، لأنها تحدث الشك وتورث النفاق. وقول أحد أئمة التابعين من دعاة الوحدة والربانية: نعمل على ما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه. وقول الشيخ حسن الهضيبي المرشد العام لأتباعه: نحن دعاة ولسنا قضاة،

في كتابه المعروف الموسوم (دعاة لا قضاة)[1] الـذي أصـدره وهـو مسجون في سجون خصمه آنذاك. وغيرهـا مـن جوامـع الحكـم والجواهر الدعوية الوحدوية، التي شاعت على لسان الدعاة والكتّـاب والمفكرين الربانيين. لذلك ينبغي على المسلم أن لا يكفّـر مـن أقـر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما، بل يتعاون معهم على التبـشير بثقافـة القرآن والدعوة إلى منهجه القويم، ما دام يتفق معهـم فـي الثوابـت والأصول والمشتركات الإسلامية. وينبغي لدعاة الإصلاح والـدعوة الإسلامية أن يجعلوا من أنفسهم دعاة إلى منهج القرآن وثقافته المنيرة والى الأخلاق الفاضلة، وأن يكونوا أصحاب رفق ولطف وذوق وحياء في أساليب الدعوة إلى الله، وفي عرض الإسلام الرباني، وأن يكونوا هداة مهديين، لا يتعالون على غيرهم ولا يمنّون عليهم أن هداهم ربهم إلى الإيمان والى الصراط المستقيم والطريق القويم.

إننا دعاة إلى الخير والوحدة والتوحيد، ولسنا قضاة وحـاكمين علـى ضمائر الناس وبواطنهم، ولا قضاة نحكم على مصيرهم وخاتمتهم يوم الحساب، فان ذلك موكول إلى الله سبحانه، فهو أعلم بمن ضـل عـن سبيله وهو أعلم بالمهتدين. وهو أعلم بالنفوس الزكية المخلصة وأعلم بما تخفي الصدور. بهذا التصور الرباني السمح المتواضع، يمكن أن تجتمع الأمة على الكلمة السواء، وهي كلمة التوحيـد فـي العبـادة، والوحدة في الاجتماع والمواطنة، ونتكامـل علـى فعـل الخيـرات

---

[1] انظر: كتاب دعاة لا قضاة/ المستشار حسن الهضيبي.

ومقارعة الظلم والفساد والفتن. بذلك تؤسس الأمة لفعل الخير والعدل والنور والاستقامة وإفشاء السلام، ونشر الأخوة والمحبة بين النـــاس أجمعين[١]. قـــال تعـــالى: ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكـــم، واصبروا إن الله مع الصابرين﴾[٢]. وقـــال: ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت واليه أنيب﴾[٣]. وقـــال: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكـــم لعلكـــم تذكـــرون﴾[٤] وقال النبي ﷺ: انه ستكون هنّات وهنّات، فمـــن أراد أن يفرّق أمر هذه الأمة وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائن من كان[٥]. وقال: الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها، فهو أحـــق بهـــا[٦]. وقال: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّةٍ من كبر[٧]. وغيرهـــا من النصوص والآثار التي تدعو إلى مكارم الأخلاق والـــى الوحـــدة والتآلف والأخوة والتقارب في السلوك والأعمال الصالحة.

---

[١] انظر: كتاب دعاة لا قضاة/ المستشار حسن الهضيبي.

[٢] سورة الأنفال/ ٤٦.

[٣] سورة هود/ ٨٨.

[٤] سورة النحل/ ٩٠.

[٥] رواه مسلم.

[٦] رواه الترمذي والعقيلي في تهذيب التهذيب.

[٧] رواه مسلم.

لقد حاول أصحاب المذهب الحنبلي والعقيدة السلفية (التيمية) استثمار الفراغ السياسي والثقافي، بعد سقوط الدولة العثمانية ونشوء الدول العربية والإسلامية الحديثة، لاسيما في النصف الثاني من القرن العشرين، تبني موقع الصدارة والقيادة بين بقية المذاهب الفقهية والعقدية، ومحاولة إغفال الثقل الحقيقي للآخرين والنسب الفعلية للتيارات والمذاهب الإسلامية، بحجة أنهم يمثلون الدعوة السلفية، التي تدعو إلى التوحيد الخالص والمنزّه عن البدع والشركيات. وتبنوا مبدأ اللامذهبية الإسلامية ورفض مبدأ الإتباع المذهبي ومفهوم التعدد المذهبي، ودعوا إلى اللامذهبية وبشروا بها تحت شعار مرجعية الكتاب والسنة، والتي كان يقصد منها انفراد المذهب الحنبلي السلفي في تمثيله للمسلمين، فوهنوا من دور مذاهب الجمهور المخالفة لهم، وبدّعوا الأشاعرة ومن أيّدهم وفسّقوا المتصوفة وأهل الزهد، وأنكروا على المعتزلة والشيعة مذهبهم، وحاربوا مشروع الوحدة الإسلامية والتقريب بين المذاهب، بحجة أن (الشيعة) كلهم غلاة وروافض يكفّرون أهل السنة، ودعوا بالمقابل – وكرد فعل للاستقطاب الطائفي عند غلاة الشيعة – إلى نوع من الاستقطاب المذهبي، بحجة أنهم أهل السنة وأصحاب العقيدة السلفية الصحيحة، والمدافعون الوحيدون عن الإسلام الأصيل، الذي نزل على قلب النبي محمد ﷺ خالياً من البدع والشركيات والأساطير، ونصّبوا من أنفسهم أنهم الفرقة الناجية

الوحيدة، وحملة راية (لا إلــه إلا الله) دون غيــرهم مــن المــذاهب والتيارات الإسلامية، التي تشكّل حوالي (٩٠%) من نسبة المسلمين.

ولقد تطوّر هذا الخطاب الأحادي المتشدد إلى مستوى من الغلو والتكفير لدى البعض منهم، وظهرت فرق وتيارات – خارج المنهج السلفي النصي المعتدل – تكفّر بعضها بعضاً، وذلك لأن المبدأ الذي تقوم عليه مدرسة النص والحديث، هو التوجه الرافض للآخر وادعاء الإتباع الأمثل للسنة، وهو توجّه ضيق متعصب تطهّري وغير وحدوي في جوهره، ولا يؤمن بالوسطية والاعتدال والعمل الجبهوي الجمعي المتكامل، كمنهج إسلامي لإصلاح المجتمع والعودة به إلى ثقافة القرآن ومنهجه القويم.

ولقد ساعد التراث الطائفي الدموي لمرحلة الصراع الصفوي العثماني فيما يخص الملف الطائفي، والذي دام ثلاثة قرون بين إيران (الصفوية) وبين تركيا (العثمانية)، ساعد على تعميق ثقافة التعصب والاستقطاب المذهبي والطائفي بين السنة والشيعة، مما ضاعف شعور الحنابلة، بالهيمنة المذهبية على المذاهب السنية، وتفرّد المذهب الحنبلي (فقهاً) والسلفي (التيمي) عقيدةً، ومن ثُمَّ إقصاء بقية المذاهب الفقهية والعقدية والتعبدية السلوكية من التأثير داخل الساحة الإسلامية. ان كل تلك العوامل شجّعت الرؤية المنفردة، وغذت حالة الطموح المتواصل للاستحواذ على القيادة الفكرية والانفراد بها، لنشر وجهة النظر الحنبلية (النصّية) بين المسلمين، لاسيما في الجزيرة والمشرق

العربي، بحجة الدعوة للتوحيد ومحاربة البدع والشركيات المنتشرة في بقية المذاهب السنية.

أما الجانب الشيعي، فقد هيمن المذهب الأمامي الاثني عشري على بقية المذاهب الإمامية المعروفة، وهيمنت الثقافة المغالية المتشددة، التي ورثت من العصر الصفوي، على أدبيات المذهب الاثني عشري نفسه، في بعض المواطن والأقطار التي نشأ فيها المذهب الجعفري، ومع الزمن ونتيجة التطور السياسي والعقدي وتأثير الصراع الطائفي المتكرر، واتساع حالة الاستقطاب الطائفي في الوسط الشيعي، شأنه شأن الوسط السني، انتهت إلى حالة من الهيمنة والتفرّد المذهبي على بقية المذاهب والتيارات الشيعية، التي كان لها حضور في الساحة الإسلامية، قبل وبعد عصر المهدي، كالزيدية (الإمامية الخماسية) والكيسانية والمختارية والإسماعيلية (الإمامية السباعية) والبطحية والواقفية والخطّابية وغيرها من المذاهب، بغض النظر عن مدى الغلو والاعتدال في نشأتها العقائدية وتطورها عبر الزمن.

نجاح مؤتمر النجف في الاتفاق على الوحدة والتقريب ونبذ التشدّد

إن حالة الاستقطاب الطائفي والمذهبي والنزعة الطائفية للانفراد المذهبي لدى الغلاة، بهدف الهيمنة الفكرية لدى الفريقين، كانت قد تفاقمت في العصر الصفوي العثماني، وما شهد من صراع دموي مرير لمدة ثلاثة قرون، وقد كان مؤتمر النجف أحد أهم المحطات التي واكبت ذلك الصراع في محاولة لوقفه، والعودة إلى

السلام والحوار الودي بين الدولتين الإسلاميتين. ويمكن التوقف قليلاً عند ما حدث في مؤتمر النجف وما كُتب عنه بعد ذلك، والتأمل في أدبيات الفريقين للتعرّف على المنهجية الطائفية التي تحكّمت في عقول البعض، في التعامل مع مقررات وأحداث المؤتمر مذهبياً وثقافياً وإعلامياً. لقد عقد هذا المؤتمر الإسلامي في مدينة النجف في العراق في عهد (نادر شاه) الإيراني وبرعايته سنة (١٧٧٣م) وبالاتفاق مع السلطان العثماني (محمود خان) وممثله (أحمد باشا) والي بغداد آنذاك، لإزالة المكفّرات والخلافات بين (السنة) و(الشيعة) في الإمبراطورية الإيرانية، وتلبية لرغبة حاكم إيران آنذاك، لإعادة اللحمة الوطنية والدينية والإنسانية لرعاياه، وإيجاد حالة مقبولة من التسامح والتعايش بين الشعوب الإيرانية التي كانت تضم قوميات مختلفة ذات انتماء مذهبي سني وشيعي، بعد توسع الإمبراطورية، لتشمل شعوب أفغانية وهندية وعربية وتركية وكردية، فضلاً عن الشعب الفارسي الإيراني القديم.

وكان هذا المؤتمر قد حدث في أعقاب قرون عديدة من الصراع الطائفي الدموي بين الدولتين الإسلاميتين العثمانية والصفوية، قبل سقوطها على يد الأفغان. وقد أدى سقوط الصفويين إلى جملة من التطورات السياسية، التي جاءت بـــ (نادر شاه) إلى السلطة، بعد سلسلة من التداعيات والحروب والصراعات والفتن داخل الدولة الإيرانية. فرأى (نادر شاه) بعد حروب وصراعات طويلة، أن

لا حل لتلك الصراعات والفتن، التي سببها الاستقطاب الطائفي وفتاوى التكفير والاستباحة عند الطرفين، إلا بالدعوة إلى مؤتمر إسلامي يضم الفريقين من المسلمين، يقوم بإزالة المكفّرات والمستحدثات الطائفية، التي جعلت (الشيعة) مارقين في نظر (السنة)، ومنها عقيدة سب الصحابة وفي مقدمتهم الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وعقيدة الغلو في الأئمة التي كانت تصل عند بعض الغلاة إلى تأليههم وتقديسهم ورفع منزلتهم فوق البشر، وكذلك متعة النساء واستباحة الدم والمال والعرض للمسلم المخالف، وغيرها من الأفكار والعقائد المغالية، التي استحدثت لتبرير استمرار الصراع الصفوي العثماني واستدامته بفتاوى وأحكام شرعية عن طريق تسييس الدين والمذهب، والتي شاع بعضها بين الشيعة، لتمثل تشريعات وأفكار ملائمة للوضع السياسي القائم آنذاك، يتم بثها في الوسط الشيعي، في مقابل فتاوى التكفير والاستباحة والحث على الجهاد والقتال للمارقين وأهل البدع والأهواء، التي كانت تبث في الوسط (السني) العثماني، لتبرير الصراع وتغذيته واستمراره أيضاً. إن تلك المفاهيم والأفكار الطائفية المتشدّدة، وضعت في مقابل تلك المستحدثات والمكفّرات وعقائد الغلو، لكي تؤدي إلى حالة من الثقافة والثقافة المضادة، فتبطل أحداهما الأخرى وتنازعها في الشرعية والوجود وصدق الإيمان بالدين في إطار الصراع على قيادة العالم الإسلامي آنذاك.

لقد طرح (نادر شاه) مشروع المذهب الخامس وهو المذهب الجعفري كحجر زاوية وأرضية مشتركة للوفاق المنشود بين السنة والشيعة، وطلب من علماء السنة والشيعة المجتمعين في النجف، بعد إزالة المكفرات المنتشرة في الوسط الشيعي، الاعتراف بـــ (المذهب الجعفري) كمذهب إسلامي خامس يصح التعبد به، على أن تعطى لهم الحقوق الشرعية والقانونية في ممارسة الشعائر في العبادة والحج والعمرة في أراضي الدولتين الإسلاميتين.

وقد كان اختيار نادر شاه لشخصية الإمام جعفر الصادق موفقاً جداً، وذلك لكونه شخصية مرموقة ومحبوبة لدى الطرفين، وينتسب إلى أهم رمزين إسلاميين لدى السنة والشيعة، فهو علوي بكري في الوقت نفسه، وهو القائل: (ولدني أبو بكر مرتين)، في إشارة حكيمة إلى أن نسبه البكري يرتبط بجده أبي بكر ﷺ مرتين، عن طريق أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر زوجة الإمام محمد الباقر، وجدته أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر زوجة جده القاسم بن محمد بن أبي بكر، إضافة إلى الصلة العلمية بين الإمام الصادق وأبيه الباقر وبين أئمة المذاهب السنية وأئمة الحديث، كالإمام أبي حنيفة والإمام مالك والفقهاء وعلماء الحديث في المدينة، مما يشكل أساساً متيناً للوفاق والتقارب بين الفريقين، ويمكن أن يشير إلى امكانية نجاح المؤتمر وتحقيق الأهداف المرجوة منه. وقد تم لـــ(نادر شاه) ما أراد، واتفق الفريقان على إزالة المكفّرات والدعوة للوحدة والتعايش

والتقريب الإسلامي وفق المنهج الوسط، والاعتراف بـــ (المذهب الجعفري) كونه خامس المذاهب الإسلامية، لغرض التعبّد به كبقية المذاهب الإسلامية، بحيث يستطيع الشيعة من خلاله أداء العبادات والشعائر في بلادهم والبلدان الإسلامية الأخرى.

وتم التوقيع على مقررات المؤتمر من قبل الدولتين العثمانية والإيرانية، بعد ثلاث سنين من انعقاده، وكاد هذا المؤتمر الفريد من نوعه في تلك الفترة، أن يحسم الخلاف الجوهري بين الفريقين، ويحقق الوحدة والتعايش الإسلامي، على يد القائد السياسي الإيراني المحنّك (نادر شاه) ووالي بغداد (أحمد باشا) و(عبد الله السويدي) رئيس المؤتمر، لولا أن حدثت انتكاسة سياسية في إيران، بعد ثلاثة أشهر من التوقيع على مقررات المؤتمر، حيث تمكن الغلاة من اغتيال حاكم إيران آنذاك (نادر شاه)، مما أدخل إيران في فوضى سياسية جديدة، وأدى إلى عودة الوضع الطائفي في العالم الإسلامي إلى المربع الأول، بعد سيطرة الغلاة ودعاة الصراع الطائفي على الحكم في إيران. وهكذا خسر المسلمون (سنة وشيعة) فرصة ذهبية، لتحقيق حلم الوحدة الإسلامية ونشر ثقافة التسامح والتعايش الإسلامي، وفق مفهوم الوسطية والاعتدال، وثقافة الإتباع المذهبي بدل الاستقطاب الطائفي، التي كانت سائدة في الوسط الإسلامي، وتكريس فكرة الاعتراف بـــ (المذهب الجعفري) إلى جوار المذاهب الأربعة عند الجمهور، في ظل الدين الواحد والعقيدة الواحدة، كما كان سائداً قبل

ظهور الدولة الصفوية. وسادت بعدها ثقافة الصراع والإلغاء والتهميش الطائفي لدى الفريقين، كما يذكر (د. علي الوردي) في كتابه الموسوم (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) [1]. ان هذا الجو الطائفي المتوتّر الذي خيّم على العراق آنذاك، هو الذي جعل العراقيون يرددون المقولة الشعبية (بين العجم والروم بلوه ابتلينه) على حد قول (د. علي الوردي) والمقصود من تلك المقولة هو (الصراع الطائفي والسياسي الذي كان دائراً بين الفرس والترك، للاستحواذ على قيادة العالم الإسلامي).

التعامل الإعلامي المتشدّد مع أحداث مؤتمر النجف

في منتصف القرن الماضي حاول المتشددون من الفريقين تكريس ثقافة الانفراد والاستقطاب المذهبي، في النظرة لمؤتمر النجف. فقام السلفية بنشر وقائع مؤتمر النجف وتحقيق أحداثه بنَفَسْ متشدّد على يد المحقق السلفي (محب الدين الخطيب)، جاعلاً المؤتمر انتصاراً لـــ (السنة) على (الشيعة)، ومستنتجاً من قراءة أحداثه بأن العقيدة السنية هي عقيدة الإسلام الصحيحة، وان العقيدة الشيعية هي عقيدة دخيلة شركية لا صلة لها بالإسلام، وان علماء السنة استطاعوا إفحام علماء الشيعة، واضطروهم في نهاية المؤتمر إلى الاعتراف

[1] انظر: كتاب لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث/ د. علي الوردي.

بفساد عقيدتهم وصحة عقيدة أهل السنة[1]. بدلاً من قراءته قراءة موضوعية والاستشهاد بالمشاهد والمواقف الايجابية والوحدوية في المؤتمر، مثل الاجتماع في صلاة الجمعة الجامعة للسنة والشيعة، والتي حدثت في آخر أيام المؤتمر الثلاثة، واعتبارها مؤشر على نجاح المؤتمر وتحقيق الوحدة الإسلامية على الأرض، ومن خلال الصلاة الواحدة، وكذلك النَفَسُ الوحدوي الوسطي في الحوار والنقاش بين علماء الفريقين، والاتفاق على إزالة المكفّرات والبدع والموضوعات التي أقحمت في التراث الإسلامي بسبب الصراع والخلاف المزمن، والاعتراف بالمذاهب الإسلامية والاحترام المتبادل، وغيرها من الأمور الإيجابية التي فرح بها راعي المؤتمر وعلماء الفريقين. وبدلاً من ذلك نجد أن محقق الكتاب السيد (محب الدين الخطيب) قد استغل الخطأ اللغوي في خطبة الجمعة (بكسر اسم عمر الممنوع من الصرف على لسان خطيب الجمعة الشيعي) واعتبره مؤشراً على فشل المؤتمر وانتهائه بدون نتيجة وثمرة مهمة. وبذلك أثبت انتصار المذهب السني، وفشل المؤتمر في آن واحد، رغم أن المؤتمر نجح على المستوى السياسي والديني والثقافي، بدليل توقيع الدولتين الإسلاميتين على بنوده، وإزالة المكفرات، وإلزام (أهل السنة) بالاعتراف بـــ (المذهب الجعفري) كمذهب إسلامي يجوز التعبد به.

---

[1] انظر: كتاب مؤتمر النجف/ تأليف عبد الله السويدي- تحقيق محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية ط. القاهرة، سنة ١٩٥٠م.

وكان (نادر شاه) فخوراً بهذا النجاح، وقد شكر الشيخ (عبد الله السويدي) على جهوده وطلب منه أن يوصل شكره وامتنانه لـــ (أحمد باشا) على موقفه المتعاون في المشاركة وتعزيز المؤتمر والسلام بين الدولتين.

مؤتمر علماء بغداد المزعوم في العصر السلجوقي العباسي

لقد كانت الصورة في الوسط الشيعي بالمقابل، مناقضة لما فسّره السنة على أنه انتصار على الشيعة وفشل لفكرة الوحدة والتقريب. فقد شكك (الشيعة) بثمرة المؤتمر وبانتصار التسنن، كرد فعل على التفسير السني السلفي للمؤتمر، وابتدع غلاة الشيعة بالمقابل مؤتمراً بديلاً، زعموا انه حدث قبل مؤتمر النجف بسبعة قرون، وحاولوا أن يثبتوا أن هذا المؤتمر قد حدث في العصر السلجوقي العباسي، وفي زمن السلطان السلجوقي المعروف (ملك شاه) ووزيره المشهور (نظام الملك)، وزعم هؤلاء أن أحداث المؤتمر وُجدت في كتيب صغير منشور في الهند في منتصف القرن الماضي يحمل عنوان (مؤتمر علماء بغداد) لمؤلف يدعى (مقاتل بن عطية). وهو كاتب مجهول الهوية والشخصية، ولم يرد ذكره في كتب السير وتراجم الرجال والتاريخ، التي دونت أحداث ذلك العصر. أما ناشر الكتاب فهو مجهول الاسم. وقد كتب هذا الناشر في بداية الكتاب عبارة: لقد وجدنا هذا الكتاب الثمين مخطوطاً في مكتبة راجا محمود

آباد بخط المؤلف، وكان تاريخ ظفرنا بهذه الدرة الثمينة في سنة ١٣٠٠هـ على مهاجرها آلاف الصلاة والتحية..

وقد تم في هذا المؤتمر المزعوم قلب النتائج التي توصل لها مؤتمر النجف وتثبيت ما يعاكسها تماماً، حيث تم تثبيت المكفرات والمستحدثات الطائفية وتأكيدها، والدفاع عن البدع والفتاوى التي استحدثت في مرحلة الصراع الصفوي العثماني. واستعرض الكتاب هزيمة علماء السنة بلسان رئيسهم (الشيخ العباسي)، وبالحجج الشيعية المغالية على لسان الشيخ (الحسين بن علي العلوي) ممثل الشيعة في المؤتمر المزعوم، وفي ختام المؤتمر تحوّل الملك السلجوقي ووزيره إلى التشيع وترك التسنن. والغريب أن التاريخ لم يذكر لنا شيئا عن هذا المؤتمر، أو عن الجدل الذي دار بين العالم السني والعالم الشيعي الذي دوّنه الكاتب المجهول في كتابه المكتشف سنة ١٩٥٠م، أي قبل ستين عاماً فقط. ولم يذكر التاريخ أيضاً الجدل الطائفي السمج الفاقد للأدب والعلمية ولروح الوحدة والتقارب والاحترام المتبادل، الذي كان يدور بين العالم السني والعالم الشيعي بحضور ملك شاه ووزيره نظام الملك، لاسيما على لسان الشيخ العلوي، والذي كان دائماً هو البادئ بالذم والشتم والاتهام للرموز السنية المعروفة كما يروي الكتاب[١]. ولم يذكر التاريخ أي تفصيل أو إشارة عن تحول الملك السلجوقي ووزيره المشهور إلى التشيع، وإنما كان ذلك مجرد خيال وفروض ليس لها

[١] انظر: كتاب مؤتمر علماء بغداد/ مقاتل بن عطية.

أي دليل أو برهان. إن هذا الكتاب المزعوم يمثل في جوهره رد فعل طبيعي للجو الطائفي المتوتر الذي سببته الرؤية السلفية لتحقيق وتفسير أحداث مؤتمر النجف، وهو يعبّر عن جو الصراع والاستقطاب الطائفي الذي ساد ثقافة الفريقين، بسبب روح الغلو التي كانت سائدة، وبسبب استبعاد منهج الوحدة والتقريب القرآني وثقافة الوسط عند الطرفين، رغم أن الوحدة والوسطية والاعتدال هو لسان حال الأغلبية الصامتة في الوسط الإسلامي (السني والشيعي)، وإن الرغبة الصادقة للتعايش والتعاون البنّاء هي جوهر الثقافة التي يفضّلها المسلم، وليس ثقافة الصدام والصراع والاستقطاب التي تروج لها السياسة المحكومة عادة بأجندات خارجية وأجنبية. قال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم[1]. وقال الإمام جعفر الصادق: إياكم والخصومة في الدين فإنها تحدث الشك وتورث النفاق[2]. إن نور الإسلام لا ينتشر في الأرض إلا إذا فشا السلام والاستقرار والحرية، بدل الخصومة والصراع والفتن والحروب، فالسلام الاجتماعي والسياسي يؤدي بالضرورة إلى سلام بين العبد وربه وسلام داخل النفس وسلام مع البيئة والطبيعة من حولنا وسلام بين الناس. وتلك هي جوهر الحكمة التي أرساها النبي

[1] رواه أبو داود.

[2] انظر: كتاب الإمام الصادق/ الشيخ محمد أبو زهرة، ط. القاهرة ١٩٦٥م.

ﷺ في صلح الحديبية مع قريش رغم كفرهم وعنادهم، ورغم معارضة بعض الصحابة الذين غابت عنهم حكمة أثر السلام في انتشار الإسلام في الجزيرة العربية في غضون سنتين من السلم والأمن الذي أوجده الصلح مع الطغاة، والتي أثمرت فتح مكة والطائف والجزيرة كلها، بفعل ثقافة القرآن ودور جيل النبوة في الدعوة المخلصة الحكيمة إلى دين الله، فدخل العرب فيه أفواجاً. فكيف إن كان بين أفراد المجتمع وتياراته ومذاهبه، الذي يجمعهم الإسلام ممثلاً في القرآن والنبي وسنته الصحيحة والقبلة والثوابت والأصول والتاريخ والتراث المشترك المنير!.

جماعة التقريب بين المذاهب في مصر العروبة والأزهر الشريف

لقد تكرر هذا الموقف الوحدوي التقريبي الذي ترجمته قرارات مؤتمر النجف في تأكيد الوحدة الإسلامية والتعايش والتسامح الإسلامي والاحترام المتبادل بين الفريقين، بعد قرنين من الزمن، وفي نفس الوقت الذي حاول التيار السلفي تفسير وتحليل أحداث المؤتمر وفق الرؤية السلفية الحنبلية المتشددة، التي لا تؤمن بالتقريب وتحاول فرض منهجها المتشدد على بقية المذاهب السنية، من خلال تبني الانفراد ومفهوم اللامذهبية السلفي الذي بشروا به، وتحديداً في منتصف القرن الماضي أيضاً، بعد اللقاء الوحدوي الذي جمع الإمام البنا والإمام الكاشاني في موسم الحج لسنة ١٩٤٩م. وذلك عندما تأسست في مصر هيئة إسلامية للتقريب بين المذاهب، تضم مجموعة

من علماء السنة في الأزهر الشريف وعلماء الشيعة في لبنان والعراق وإيران، برئاسة شيخ الأزهر العلامة الشيخ محمود شلتوت. ولقد أثمرت تلك الجهود عن اتفاقات وحدوية عديدة منها، فتوى شيخ الأزهر الشهيرة في حينها، وهي فتوى التقارب والتعارف بين المذاهب الإسلامية وجواز التعبد وفق المذهب الجعفري، أسوة بالمذاهب الأربعة الأخرى المعروفة، والدعوة للتعايش والتسامح المذهبي بين السنة والشيعة. ورغم إن تلك الجهود لجماعة التقريب بقيادة علماء الأزهر قد حُجّمت واضمحلت مع الزمن، بعد وفاة الشيخ شلتوت في ستينيات القرن الماضي، بعدما شنّ التيار السلفي الحنبلي هجوماً شديداً عليها وعلى المشروع بكل تفاصيله، ودعا إلى مقاطعة دعاة الوحدة والتقريب، واتهموهم بالمداهنة والنفاق والوهن. وهم الذين كان هدفهم المعلن هو تحقيق الوحدة والأخوة والسلام الاجتماعي والعيش الكريم للمسلمين. وكانت حجتهم في دعواهم لمقاطعة هذا التوجه الوليد بين الفريقين هي، أن الشيعة أو غلاتهم قد استغلوا فتوى الشيخ شلتوت ومشروع التقريب، للتبشير بالتشيع داخل الوسط السني، كما إن الفتوى قد أكدّت الاعتراف بالمذهب الجعفري، كمذهب إسلامي مؤهل لاتخاذه منهجاً للفقه والعبادة للمسلمين الشيعة، دون الإشارة إلى موضوع إزالة المكفّرات والمستحدثات الطائفية، كالغلو في تقديس الأئمة وموضوع سب الصحابة، وعدوا ذلك تراجعاً عن المكاسب التي حققها مؤتمر النجف سابقاً. ودعوا إلى محاربة

المشروع ومقاطعة ثقافة التقريب والتعايش والتسامح المذهبي التي دعا لها الأزهر ودعت لها جماعة التقريب من الفريقين. واتهموا الشيخ محمود شلتوت (رحمه الله) بالضعف والمداهنة والمروق عن مذهب أهل السنة والجماعة وعن أصولهم الإسلامية المعروفة. وقد هوجم المشروع والشيخ شلتوت على لسان الكثير من علماء السلفية الحنابلة، كما ذكر صاحب كتاب مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة (د. ناصر القفاري)[1]، كما تخلى التيار الإخواني – صاحب المنهج الوسط المعاصر – عن الدفاع عن جماعة التقريب، بسبب هيمنة التيار السلفي على الثقافة السنية، خلال النصف الثاني من القرن الماضي، وبسبب وجود بعض الشخصيات الضعيفة أو المشبوهة بين رجالات جماعة التقريب، في مرحلة تأسيسها، كما ادعى المعارضون لها.

وأدى ذلك الموقف السلفي المتشدد من مشروع التقريب الإسلامي، إلى تكريس حالة الاستقطاب الطائفي لدى الفريقين، ومهّد لحالة استغلال الملف الطائفي وتسييسه لصالح خصوم الإسلام، لخلق الفتن والصراعات الدموية والتوترات الطائفية في المجالات الثقافية والإعلامية، بما يخدم خصوم الإسلام، ويمهد لحالة من الصدام والصراع المدبّر بين الكتلتين الإسلاميتين، وبما يشبه الصدام

---

[1] انظر: كتاب مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة/ د. ناصر عبد الله القفاري، دار طيبة، ١٤١٣هـ.

والصراع الذي حدث في العالم النصراني في بداية عصر النهضة قبل قرون، بين كتلة البروتستانت وكتلة الكاثوليك المسيحيتين، لصالح الجهات المستفيدة من إثارة الصراع والصدام وتدبيره، ولتمرير السياسات والأحداث الدولية والطائفية، لصالح التوجه الامبريالي الرأسمالي للسيطرة على مقدرات الشعوب، وعلى توجهاتها المستقبلية.

العقيدة الوسطية الحنفية وراء فتوى الشيخ شلتوت

لقد ظن التيار السلفي لاسيما جناحه المتشدد، أن السبب الذي يكمن وراء تساهل الشيخ شلتوت وفتواه المتسامحة، هو ضعف عقيدته وشخصيته، وبسبب مداهنته للشيعة ولأرباب السياسة ومراكز القوى في عصره، ودخوله في موازنات سياسية ومذهبية لدوافع شخصية ومصلحية. ولم يفطن هؤلاء أن الشيخ محمود شلتوت، كان شيخ الأزهر في ذلك العهد ومن كبار علماء المسلمين. وقد كان ذلك العهد عهداً علمياً ملتزماً بضوابط القدرة والكفاءة والأمانة، وزمناً مهتماً بالرموز العلمية والدينية، ولا يمكن أن يرشح أحداً من العلماء لهذا المنصب الإسلامي الرفيع، إلا إذا استوفى شروط منصبه الإسلامي، ولا يعطى إلا لمن تميّز بالعلم والفقه والورع بين علماء المسلمين. لقد كان السبب الأساسي وراء فتاوى الشيخ شلتوت، هو أن الشيخ شلتوت كان حنفي المذهب أشعري العقيدة وسطي المنهج، مع سلفيته وورعه في إتباع الكتاب والسنة، إذ لا تعارض بين المنهج الوسطي الأشعري والمنهج السلفي الحقيقي، كما بيَّن الإمام حسن البنا، حينما أكد ذلك في

وصفه للعقيدة الوسطية الأشعرية، بقوله الكريم: "إن دعوتنا صوفية سلفية، سلفية الإتباع وصوفية المنهج"[1]، وهو أفضل تعبير عن العقيدة والمنهج الأشعري الوسطي على لسان الإمام البنا مؤسس حركة الإخوان المسلمين في مصر. وان فتوى الشيخ محمود شلتوت كانت بدافع من عقيدته الوسطية، التي تؤمن بفحوى تلك الفتوى، وتدعو للتعايش والتسامح والانفتاح المذهبي والديني. وانه كان على يقين، بأن ثقافة القرآن الوحدوية هي الكفيلة بإذابة الخلافات المذهبية والفروق العقائدية، إذا ما ترك المسلمون – بكل فرقهم ومذاهبهم وتياراتهم – الغلو والتشدد والتعصب والاستقطاب الطائفي. وان الشيخ شلتوت ومن معه من الفقهاء كانوا يراهنون على المستقبل المشرق الذي ينتظر الأمة، إذا ما التزمت بتعاليم القرآن وهدي النبوة، وفق المشروع الوحدوي والرؤية الربانية الصادقة المخلصة، التي تتسق مع دعوة القرآن وأخلاقه وتعاليمه السامية، التي تدعو إلى التسامح والتعاون والتقارب والتكامل، من خلال التسديد وامتلاك إرادة التغيير نحو أخلاق القرآن وثقافته المنيرة. ولن يضر أهل السنة أن يتعبد الشيعة وفق المذهب الجعفري الأصيل، المستمد من تراث آل البيت والمنهج الرباني، وأن يسود التعايش والتسامح المذهبي بينهم، باعتماد الأصول

[1] انظر: كتاب شرح الأصول العشرين للإمام حسن البنا/جمعة عبد الله، ط.القاهرة ١٩٩١م.

والمشتركات الدينية والأخلاقية، التي تجمع المذاهب الإسلامية وهي كثيرة.

علماء الأخلاق في الإسلام

لقد أكد الشيخ محمد مهدي النراقي، في كتابه جامع السعادات[1]، وهو من علماء الأخلاق الشيعة المتأخرين من مدينة نراق الإيرانية، ذلك المعنى الأخلاقي بامتلاك إرادة التغيير بالتسديد نحو الخير الذي يحدده الشرع الحنيف، فهو يرسم لنا قاعدة أخلاقية جميلة من خلال الرمز الهندسي على شكل دائرة، فيضع الخير في مركز الدائرة، ويضع الشر بكل تعدادياته الأخلاقية والفقهية والاجتماعية والسياسية، على محيط الدائرة. لذلك فان الأخلاق عند النراقي الشيعي – وعند الغزالي عالم الأخلاق السني، الذي سبقه بقرون وكتب الإحياء[2] من أجل إحياء علم الأخلاق المهمل عند المسلمين – هي: قدرة الإنسان على التسديد في مركز الدائرة، ممّا يستدعي وجود النية والقصد في عمل الفرد والمجتمع على السواء. والتسديد هو جهاد أخلاقي ومعرفي وقتالي، غير قابل للانحراف أو الرمية الطائشة. كذلك يمكن تطبيق مفهوم النراقي الأخلاقي على مفهوم إرادة التغيير لدى الأمم، وضرورة تمحورها حول محور التوحيد الديني، من دون

---

[1] انظر: كتاب جامع السعادات/ محمد مهدي النراقي، ثلاثة أجزاء، ط. النجف.

[2] انظر: كتاب إحياء علوم الدين/ أبو حامد الغزالي، خمسة أجزاء، ط. دار المعرفة/ لبنان.

الانحراف إلى محور الإفراط أو محور التفريط، أي الإرادة بالثبات على مركز التوحيد الوسطي دون الانحراف نحو الاستقطاب والغلو أو اللادينية، كما يحاول خصومنا أن يوهموننا بالحل السحري للخروج من الفتن والأزمات التي نواجهها، وهو تأكيد لمعنى الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1]. وان من يتخذ منهج الغلو وتراث الخرافة والأسطورة والروايات الطائفية الموضوعة والمسيسة، فانه سيقع في فخ الهرطقة والافيونية والجمود والشرك والبعد عن الله وتعاليم الوحي الصادق، وإنه عند ذلك لن يضر إلا نفسه ومذهبه، سواء كان سنياً أم شيعياً. وسيعلم المسلمون أن لا طريق سوي وصحيح أمامهم، لتحقيق وحدتهم وتوحيد صفوفهم لكي يصلوا بأمتهم إلى الرقي الحضاري والتقدم والاستقرار، إلا بالسير وفق منهج القرآن والسنة، وإتباع تعاليم الوحي التي تدعو إلى التعارف والتعايش والتعاون على البر والتقوى، ومن بين تلك الفضائل الإسلامية، المساعي الصادقة التي تؤسس لوحدة الأمة وتضافر جهودها لبناء الجيل القرآني الفريد على هدي جيل النبوة، والمشروع الوحدوي الرباني الجامع وغير المبدد للطاقات والأعمال والهمم، وكذلك الاتفاق على الاعتراف بالمذاهب الإسلامية كطريقة شرعية ومنهج رباني، للتفقه في الدين والتعبد على أساس إتباع المذاهب الإسلامية المعروفة. وان الانفتاح والتعاون والتكامل على المشتركات

---

[1] سورة الرعد/ ١١.

المذهبية والإسلامية هو القاسم المشترك الأعظم لبناء الأمة الموحدة، بعيداً عن شطط الغلاة والمبتدعة والمتعصبين، الذين يسعون للاستحواذ على موقع الصدارة والقيادة والتوجيه بين بقية المذاهب الإسلامية، بدون وجه حق أو استحقاق عادل، بغية نشر التعصب والتوتر الطائفي والمذهبي المنبوذ، والذي لا يكتب له القبول والبركة والتوافق، لأنه مبني على الاستقطاب والتهميش والاصطفاف الطائفي البغيض.

إن هذا التصور والقناعة الإسلامية هي الرؤية والخلفية المتوقعة لعالم جليل وفقيه كبير، أفتى في منتصف القرن الماضي بفتوى موحِّدة كريمة، تعيد إلى الأذهان أبرز ثمار مؤتمر النجف الفريد من نوعه في تاريخ المسلمين في العصور الأخيرة، من أجل تجاوز معضلة الصراع الطائفي الدموي ومعالجة الغلو الديني والتعصب والخلاف المذهبي، والعيش الكريم كأمة واحدة تدعو إلى الوحدة والتوحيد والخير والعدل والسلام.

الغلاة هم أقلية في المجتمع الإسلامي

إن الغلو والتنطع كمنهج ثقافي في المجتمع، لا تزيد نسبته عادة عن (٥%) في أي منظومة ثقافية أو اجتماعية، أما الوسط فنسبته لا تقل عن (٣٠%) في كل طرف من الطرفين، في حين تكون النسبة (١٥%) عن يمين الوسط وعن شماله، وهكذا تكون المحصلة على محور السينات من جهتي اليمين واليسار هي (١٠٠%) بجمع النسب

(٦٠+٣٠+١٠)، فكيف يتسنى لنسبة الـــ (٥%) أن تتغلب على نسبة الـــ (٤٥%) والتي تمثل الأغلبية الصامتة للوسط الايجابي الذي يؤمن بالتعايش والتسامح والوحدة والسلام[١]؟. إن هذه النسب يمكن أن تختل وتتغير بتأثير الضغوط والمؤثرات الخارجية الداعمة لثقافة الغلو والاستقطاب والتعصب، والتي تسبب الصراع والصدام وتؤجج الحس الطائفي والعرقي في المجتمعات المتخلفة والمغلوبة على أمرها.

وهكذا فشلت جهود الوحدة والتقريب التي بذلها جماعة التقريب مرة أخرى، كما تبددت ثمار مؤتمر النجف سابقاً، ومع ذلك فان الأمل كبير في إحياء تلك التجارب والمشاريع الوحدوية بعد معالجة الإخفاقات والسلبيات والثغرات التي صاحبت التجارب السابقة، لاسيما ما يخص النوايا والأخلاق والشفافية لدى الطرفين، كالثقة والصدق والقناعة والوفاء والإخلاص في تبني مشروع الوحدة الإسلامية، وأهمية استلهام تعاليم القرآن والهدي النبوي في تنفيذ المشروع الوحدوي، ودراسة خصوصية كل بلد يتم اختياره لتأسيس دعوة الوحدة والتقريب، من النواحي الاجتماعية والسياسية والثقافية والإعلامية.

إن النجاح العملي على الساحة الإسلامية يعتمد على الإيمان الحقيقي بقدرة الأمة على التمثّل بأخلاق القرآن، وعلى الجدية والإخلاص في إنقاذ الأمة من حالة التمزّق والتفرّق، وتخليصها من

---

[١] انظر: كتاب ثقافة الوسط/ للمؤلف، المقدمة.

مرض الطائفية والصراع والاستقطاب الطائفي، الذي بات اليوم من أيسر الطرق وأسرعها في تسييس الدين واستغلاله والمتاجرة به، بغية الوصول إلى المآرب والمصالح الشخصية والفئوية والطائفية، التي تسبب الفساد والظلم والتخلف، وتحول الدين من واحة إيمانية ربانية لتوفير السعادة والطمأنينة إلى حالة افيونية متعفنة، تمسخ الإنسان وتغرقه في بحر من الظلمات والتخلف والصراع والبعد عن الله، وتشل دوره الحضاري والإنساني، فضلاً عن الدور الرسالي الذي تشرف به المسلم، لإعادة المجد لحضارة القرآن في الأرض ونشر العدل والخير والسلام بين الأمم[1].

نظرية تكنولوجيا السلوك وصناعة الثقافة والرأي العام

إن صناعة وتكنولوجيا السلوك يمكن أن تحوّل الناس إلى إمّعات تمشي برد الفعل لا شعورياً وبدون إرادة، ما لم يكن المشروع الوحدوي والدفاع عن الهوية والإيمان الرباني هو البديل الفاعل، لإنقاذ الناس من مغبّة الصراع والفتن والتنازع والتمزّق. ولا بد من البدء من الصفر في مجال التربية، على خطى النبي العربي ﷺ وتعاليم

---

[1] انظر: كتاب مؤتمر النجف.. رؤية نقدية قرآنية معاصرة/ للمؤلف، ط. عمان/ دار الأمل، ٢٠٠١م؛ مقارنةً مع كتاب مؤتمر النجف، الذي حققه السيد محب الدين الخطيب، والذي نشر في مصر في خمسينيات القرن الماضي،والذي كان يعكس وجهة النظر السلفية حول المؤتمر.

القرآن، وفق المنهج الوحدوي الوسطي، والدعوة بالتي هي أحسن، لمواجهة الاستقطاب والصراع الطائفي، وكل عوامل التفرق والتعصب والتشدد والغلو المنهي عنها في القرآن والسنة.

لقد أصبحت تكنولوجيا السلوك وصناعة الثقافة والفكر اليوم، من الحقائق التجريبية التي يعتمد على نتائجها الغرب الاستعماري، من خلال نظريات الفوضى الخلاقة وصدام الحضارات ونهاية التاريخ وأدوات الصدمة والترويع، التي يستخدمها مع الشعوب المغلوبة والدول المتخلفة ومنها العالم العربي بين الحين والآخر، في ظل العولمة وصدامها الحضاري وفي ظل الفوضى الممنهجة والجريمة المنظمة، على المستوى الدولي والاستخباراتي والأعمال والجرائم القذرة التي تنفذ بشكل مستمر في شتى بقاع العالم اليوم، والتي يحاول الغرب الرأسمالي تطبيقها، بهدف السيطرة على مقدرات الشعوب وتوجيه سلوكها إلى الوجهة التي تخدم مصالحه الإستراتيجية.

ويطمح أرباب العولمة زجّ العالم العربي والإسلامي في مشروع الشرق الأوسط الكبير، بعد إجراء عملية إعادة تشكيل وهيكلة العالم العربي وتجزئة دوله الرئيسية على أسس طائفية وعرقية وجغرافية، بما ينسجم مع مقتربات هذا المشروع السياسي الكبير، الذي تحدث عنه كيسنجر وبرجنسكي وكونداليزا رايس وغيرهم من منظري الغرب في أمريكا، ويفترض أن يسبقه تطبيع شامل بين إسرائيل والعرب خلال العقد القادم على أبعد تقدير، بما يتيح لإسرائيل إمكانية الهيمنة والسيطرة على ذلك المشروع العولمي المرتقب، وبما

يخدم المصلحة الغربية ومصلحة الطغمة الرأسمالية التي تقود العولمة وسياساتها الممنهجة باتجاه تدويل المال والسياسة والإعلام بيد حفنة من أصحاب القرار والمنتفعين والمتنفذين في مقدرات العالم. وهي الظاهرة الرأسمالية التي حذر منها القرآن بقوله تعالى: ﴿كي لا يكون دُولةً بين الأغنياء منكم﴾[1].

إن هذه التكنولوجيا الاجتماعية والثقافية قد جعلت الغلو والتطرف والاستقطاب الطائفي والصراع الدموي بين المسلمين، هو الضاغط والكابح لإرادة الشعوب بخلق الكابوس والبعبع المخيف والمنغص لحياة الشعوب التي تعيش في إقليم معين، لتوجيه سلوكها إلى الوجهة التي يخطط لها أصحاب القرار في الغرب وعرّابوا العولمة والأمركة، التي تريد فرض إرادتها على الشعوب بشتى السبل والوسائل المشروعة وغير المشروعة. إن الطائفية الدينية والاستقطاب الطائفي، التي جربت في لبنان منذ ربع قرن، وامتدت اليوم إلى العراق والخليج وربما العالم العربي كله، تمثل – في نموذج صناعة السلوك المفترض – أقصى اليمين، لدفع الناس لتقبل حتميات العولمة وشروطها، بعد أن تدفع الثمن الغالي من الدماء البريئة والمخدوعة بفخ الفتن المدبّرة والمصنوعة، وعبر صراع مرير قد يستغرق عقوداً طويلةً، لتكريس الفقر والجهل والنفعية وكل ما يؤدي إلى مسخ الإنسان وتدمير هويته وثقافته المحلية، وبوسيلة تسييس الدين والثقافة

[1] سورة الحشر/ ٧.

لمصلحة الطواغيت وأصحاب المصلحة من خلق تلك الفوضى المدمرة، ومن ثم إجبار الناس أو إقناعهم بالإيحاء والضغط النفسي للقبول بحلول الغرب وثقافته المادية، والخضوع لفلسفة التغريب العلماني المادي بشقيه الليبرالي البراغماتي أو اليساري الجدلي المادي، وهو ما يمثل في برنامج تكنولوجيا السلوك أقصى اليسار. وعندها سيتم قطع الطريق أمام حضارة الأخلاق وثقافة القرآن والمنهج الرباني أن ينبت في أرضه وعالمه الطبيعي في شرقنا العربي. وهو ما كان عليه النبي ﷺ وآله وصحبه الكرام، الذين كان خلقهم القرآن، والذين كانوا خير أمة أخرجت للناس، يسيرون بنور الوحي، على خط الاستقامة الرشيدة. والوسط الرباني هو السبيل والصراط المستقيم والمنهج القويم الذي ينبغي التمسك به لمقاومة ثقافة الغلو والتشدد والاستقطاب، المفروضة علينا من خارج عالمنا، ومن داخل أنفسنا بما يوسوس لنا الشيطان، بالظلم والعدوان والقهر والغلبة لمخالفينا من المسلمين من بني جلدتنا. وهكذا فان تكنلوجيا السلوك لم تعد نظرية غربية واستنتاجات غير قابلة للتطبيق، بل هي اليوم واقع مر ومرض مهلك نعيشه ونلمس آثاره في عالمنا المتخلف بما جنت أيدينا، والذي بدأ مع عصر النهضة وتفاقم في عصر العولمة الحالي.

لقد بين لنا النبي ﷺ في حديث السبيل المشهور تلك الصورة التي ترشد المسلم لإتباع السبيل الوسط بين سبل الشيطان عن يمينه وشماله، فعن ابن مسعود قال: خطّ رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال:

هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خطّ خطوطاً عن يمين ذلك وعن شماله ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصّاكم به لعلكم تتقون﴾ [1].

ولذلك يحذرنا النبي ﷺ من التقليد الأعمى والضعف في الشخصية بحيث يتحول الإنسان إلى إمّعة، ليس له رأي أو هوية أو صفة إيمانية تميّزه عن الآخرين، فاقد الإرادة والقدرة على اتخاذ القرار والتمييز بين المفيد والضار في ثقافة الآخرين، لاسيما ممن لا يؤمنون بعقيدتنا ورسالتنا وديننا الحنيف من اليهود والنصارى والمنافقين والملحدين الماديين وأشباههم، فيقول: لا تكونوا إمعة، تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وان ظلموا ظلمنا، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وان أساؤا فلا تظلموا[2]. وقال ﷺ: لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القِذّة بالقِذّة، شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه، فقيل له: اليهود والنصارى؟.. قال: فمَنْ [3].

---

[1] رواه أحمد والحاكم. والآية في سورة الأنعام/ ١٥٣.

[2] رواه الترمذي.

[3] رواه البخاري ومسلم.

الربانية والرمز الهندسي العربي

إن الربانية هي إخلاص العبودية لله تعالى، وهي كينونة المؤمن في ثقافة القرآن، وفي التوجيه الإلهي المباشر لعباده المؤمنين. قال تعالى: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [1]

ولكن يا ترى كيف يمكن للمسلم أن يحقق الربانية في نفسه، ويبشّر بها ويدعو لها بين الناس؟. وما هي أبرز ملامحها وصفاتها التي ينبغي أن يتصف بها المؤمن، لكي تُرى في قلبه ووجهه، وتظهر بشكل نورٍ يتلألأ، وسلوك رفيع يظهر في الأخلاق الزكية والتضحية والإيثار ونكران للذات ليس له نظير. إنها مستقاة من قبس النبوة ونوره الهادي، محمد العربي الذي كان خلقه القرآن، ووصفه الخالق العليم بأنه كان على خلق عظيم. حتى يرتقي المسلم والمؤمن في درجات الإيمان ويصل درجة الإحسان، وتصبح له بصيرة نافذة عارفة عالمة بما يجري من خفايا وأحداث، ومن كيد أهل الكفر والنفاق ومكرهم، الذي يتولاه أتباع الشيطان وطواغيت العصر. ذلك لأن المسلم الرباني يرى بنور الله وتتجلى فيه الربانية والعبودية في أجمل وأكمل صورها، حتى في زينته وحلّته وتصرفاته، التي تهدي القلوب والنفوس من حوله، ويسهم بفاعلية في التغيير والبناء، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لبناء الأمة على منهج القرآن

---

[1] سورة آل عمران/ ٧٩.

وهدي الرحمة المهداة ﷺ، ويتصف بصفات الإحسان والنظرة الشمولية لكافة نواحي الحياة. قال رسول الله ﷺ في وصف درجة الإحسان، وهي بلوغ الربانية في العبادة: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك[1]. وقال تعالى في وصف النبي إبراهيم عليه السلام: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمهن. قال إني جاعلك للناس إماماً﴾[2].

وقال: ﴿إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً قانتاً لله حنيفاً وما كان من المشركين﴾[3].

كان أمة: لأنه على الحق، قال ابن مسعود: الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك.

أمة: لأنه كان يدعو الناس إلى الله، قال ابن مسعود أيضاً: كان إبراهيم أمة، لأنه كان يعلم الناس الخير.

أمة: لأنه إمام بنص القرآن، ولهذا قال قتادة: كان إبراهيم أمة. أي إماماً يقتدى به. وتتبع سنته. تماماً كما كان حفيده النبي محمد أسوة حسنة للناس. قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً.﴾[4].

---

[1] رواه البخاري ومسلم.

[2] سورة البقرة/ ١٢٤.

[3] سورة النحل/ ١٢٠.

[4] سورة الأحزاب/ ٢١.

أمة: لأن جهوده في الدعوة إلى الله، كجهود أمة بحالها، مع أنه شخص واحد.

أمة: لأنه ترك آثاراً بارزة واضحة، في الدعوة إلى الله، حتى قيام الساعة.

أمة: لأنه أبو الأنبياء وأبو المسلمين وأبو المتقين، إلى يوم الدين.

إن إبراهيم كان أمة في كل شيء، في الإيمان والالتزام والدعوة والجهاد والثبات والعلم[1].

ولعل النور هو أهم ملامح الربانية، شأنه شأن القدوة والإمامة والأمة والإحسان والفطرة والبصيرة، قال تعالى في النور الذي يقذفه الله سبحانه في روح المؤمن وقلبه، لكي يمشي به في الأرض على هدىً ونور:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾[2].

إن الفطرة السوية والنور والبصيرة هي هبة الله لعباده الصالحين. قال تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾[3] وقال: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم

---

[1] انظر: كتاب حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية/د.صلاح الخالدي،ص٥٨.

[2] سورة الحديد/ ٢٨.

[3] سورة النور/ ٤٠.

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [1] . وقال النبي ﷺ: اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله، ثم قرأ: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾[2]. وقال: الأرواح جنود مجنّدة، ما تشابه منها ائتلف وما تناكر منها اختلف[3]. وقال ﷺ في حديث الإسراء والمعراج: جاءني جبريل بإناءٍ من خمر وإناءٍ من لبن، فاخترت اللبن. فقال: اخترت الفطرة[4]. ويقول النبي ﷺ في فضل قراءة القرآن واستلهام تعاليمه وأخلاقه الربانية: خيركم من تعلّم القرآن وعلمه[5]. وقال في حديث تشبيه المؤمن الذي يقرأ القرآن ويتدبره بالاترجّة: مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن، مثل الاترجّة، طعمها طيب، وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن، كمثل التمرة، طعمها طيب، ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن، كمثل الريحانة، ريحها طيب، وطعمها مرّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن، كمثل الحنظلة، طعمها مرّ، ولا ريح لها[6].

إن عودة المسلم إلى القرآن والفطرة والطبيعة، من خلال اعتماد مرجعية القرآن والسنة والتخلّق بأخلاق القرآن والفطرة التي

---

[1] سورة الروم/ ٣٠.

[2] رواه الترمذي وقال حديث غريب. والآية في سورة الحجر/ ٧٥.

[3] رواه مسلم أبو داود.

[4] رواه مسلم.

[5] رواه مسلم.

[6] رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى.

فطر الله الناس عليها، والتبيؤ مع الطبيعة المسخرة لنا، هو عقار ثلاثي فعّال ومفيد للتأصيل الديني والحضاري وإتباع الهدي النبوي، لبناء المجتمع المتمدن الآمن النظيف، بخلاف البعد عن القرآن والفطرة والطبيعة، باعتماد الثقافة المادية ومسخ الفطرة السوية للناس وتغيير خلق الله، والتلاعب والعبث في الثوابت والقوانين والسنن التي أوجدها الله في الكون والحياة، بما يوسوس به الشيطان لبني آدم، فان ذلك يؤدي إلى الفساد والمسخ والفسوق والفتن والفوضى والصراع، الذي يعيشه معظم الناس اليوم. قال تعالى حكاية على لسان إبليس: ﴿ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم، فليبتكن آذان الأنعام، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله، ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ [1]. وعليه فان تسخير الطبيعة لخدمة الإنسان وبما يفيد الخلق، هو من الفطرة وهو مباح ومندوب للمسلم، بعكس تغيير خلق الله بالتلاعب والعبث في الجينات والاستنساخ البايولوجي، من دون وجود ضرورة أو مصلحة للإنسان وحضارته، لأنه سيكون مسلك شيطاني كما سماه القرآن، يؤدي إلى الفساد والصراع وتدمير الحياة والسلم العالمي والمجتمعي، كما نراه في التلاعب الفايروسي والتغيير المتعمّد لصفات وشكل المخلوقات، باسم التجميل والاستنساخ وزيادة الإنتاج من خلال عمليات الهندسة الجينية غير المحسوبة العواقب وغير المدروسة بدقة

[1] سورة النساء/ ١١٩.

وأمانة، باستثناء تلك التي تجرى بأيدي مسئولة وأمينة، وكذلك البحوث التي تعتمد مبدأ الاستفادة من تسخير المخترعات العلمية لخدمة الإنسان وتقدمه الحضاري. وهناك العديد من الأعمال المشبوهة والسرية التي يقوم بها العلماء المرتزقة لإنتاج أجيال جديدة من الفايروسات والبكتريا والأحياء الدقيقة، بغية نشر الأمراض والأوبئة، وكل ما يتصل بالحرب الجرثومية ونشر الأمراض الخطيرة الجديدة، التي لم تكن في أسلافنا، كالايدز وجنون البقر وأنفلونزا الطيور والخنازير وغيرها من الأمراض التي ظهرت بعد تفاقم التلوث البيئي للطبيعة وتغيير خلق الله والعبث في مخلوقات الله وسننه الطبيعية، وانتشار الفساد والرذيلة في المجتمع الإنساني. وفي ذلك يقول النبي ﷺ: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا[1].

ويؤكده قول الله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾[2]. وما أكثر الأمراض والأوبئة التي ظهرت اليوم، ولم يسمع بها السابقون من الأجيال التي عاشت قبلنا.

إن الإنسان بتركيبته الجوهرية البسيطة، التي تتوافق مع ثقافة القرآن والرمز الهندسي العربي، مكون من روح وقلب وعقل. ولابد

---

[1] رواه الحاكم في المستدرك.

[2] سورة الروم/ ٤١.

للربانية من التغلغل في تلك المكونات الجوهرية للإنسان، لتجعلها على خطّ الاستقامة وعلى الصراط المستقيم وسواء السبيل، كما يصورها الرمز الهندسي العربي في تلك الثلاثية الجامعة[1]، فالروح هي سر الهي لم يكشف لنا الله سبحانه كنهه ولا ماهيته، ولكنه يرمز للذات الإلهية العلية، فهو تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهو السميع البصير﴾[2]. قال تعالى في الروح وتعريف كنهها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [3] لذلك فان الروح لا بد أن توضع في الموضع الأول من الرمز الهندسي العربي، ولابد أن تستظل بظل عقيدة القرآن والوحي الصادق الذي مصدره الله سبحانه. أما القلب فهو موطن المشاعر والأحاسيس والعرفان والتزكية والسلوك الأخلاقي الإنساني، وهو الموضع الثاني من الرمز، فلا بد أن نضع التزكية والسلوك وبرامج التربية وتهذيب النفوس وتربيتها على السجايا الأخلاقية الطيبة في الموضع الثاني. قال تعالى:

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[4].

---

[1] انظر : كتاب الرمز الهندسي العربي الشامل/ محمود الغزنوي (مخطوط).

[2] سورة الشورى/ ١١.

[3] سورة الإسراء/ ٨٥.

[4] سورة الرعد/ ٢٨.

أما العقل الذي يضعه الرمز الهندسي الافتراضي في الموضع الثالث، فيمثله النشاط العقلي المتعلق بالفقه والعلم والشريعة والمذهب والمال والتجارة والمعاملات، التي نحتاجها في حياتنا لترتيب نمط العيش والتعامل الاجتماعي والديني والتجاري والقانوني بين أفراد المجتمع. قال تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾[1].

إن المسلم الرباني الذي يريد أن يسلك الطريقة المثلى على نهج النبوة وسيرة النبي ﷺ بعقيدته وسلوكه وشريعته، لابد أن يكون قد تأسست في أعماق روحه، عقيدة القرآن الصافية الموحّدة والتوحيدية والوسطية الشمولية، لتشع رحمة وسلاماً على كل من حوله. ويكون قلبه قد امتلأ نوراً ومحبة وأخوة وزهداً بالدنيا الفانية، بحيث يترجم تلك الصفات والأخلاق الكريمة، سلوكاً أخلاقياً فاعلاً ومؤثراً في نفسه وفي من حوله، لإعمار الأرض وبنائها، وفق منهج الله وما يريده سبحانه من خلافة الأرض واستعمارها. لذلك فإنه يتصف بالعزّة والرقّة والتواضع والصفاء والمحبة للناس، ولكل من حوله من عوالم وأمم وأفراد وبيئة صديقة متلائمة ومسخّرة له ولغيره من بني آدم. ولقد خلق الله بني آدم وجعلهم شعوباً وقبائل، ليتعارفوا ويتعاونوا على البر والتقوى، لإعمار الأرض وخلافتها وبناء حضارة الإنسان على

---

[1] سورة التوبة/ ١٢٢.

أساس العدل والسلام، وينبغي أن يكون عقل المؤمن، عقلاً علمياً تجريبياً واضحاً، لا مجال للخرافة والأسطورة والهرطقة فيه، ويكون فقيهاً عارفاً بما ينبغي أن يعلمه في حياته، وفق منهج محدد وفقه موزون، مبني على أصول الفقه الثابتة والنابعة من الكتاب والسنة. ولا بأس في أن يأخذ فقهه وشرعه ومعاملاته من المدارس الفقهية والعلمية والمذاهب الإسلامية المعروفة، وأن يكون واضحاً مع نفسه ومع غيره، بإتباع المذهب الفقهي الذي يختاره، كمدرسة للتعبد وأداء الشعائر الدينية، وفق مرجعية القرآن والسنة، حتى يصل درجة النظر في النصوص الشرعية، واختيار الاجتهاد الأصوب في دقائق الأمور وتفاصيلها فضلاً عن الأصول والأركان الدينية.

وهكذا يمكن أن يكون المؤمن الرباني: قوي العقيدة والروح، رفيع الأخلاق ورحيم القلب زكي النفس، حفيظ عليم فقيه في أمور دينه ودنياه. ولعل الرجل الجزل والإنسان الكامل الرباني الذي يريده الله سبحانه، بعد استكمال مراحل تربيته القرآنية، هو من يستطيع الجمع بين صفات الجزالة والكمال في المنظور القرآني، وفي نظام الفتوة والفروسية العربية[1]، فيكون رجلاً شجاعاً عفيفاً حكيماً، وهي الصفات عينها التي تلتقي على خط الاستقامة في الرمز الهندسي العربي، كما موضح في الشكل أدناه:

---

[1] انظر: كتاب العولمة وأثرها في التربية والمجتمع العربي/ للمؤلف، فصل المسائل الأخلاقية في نظام الفتوة.

شكل رقم(١): الربانية

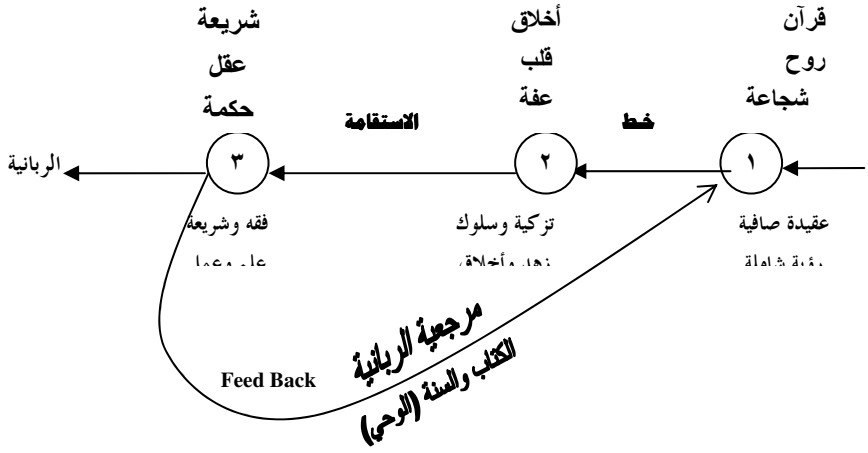

شكل رقم(٢): الإحسان

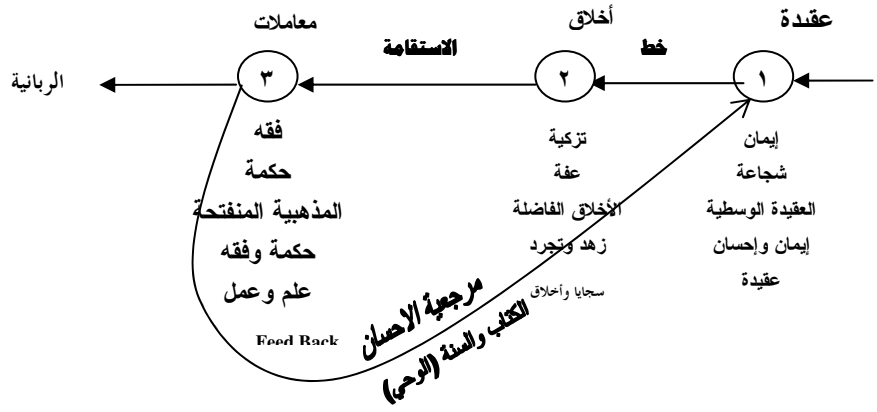

وفي القرآن والسنة نصوص كثيرة تتحدث عن الربانية والتدرج في مدارج السالكين للوصول إلى درجة الإحسان عبر مراتب الإسلام والإيمان، كما يصورها الحديث النبوي، وهو حديث جبريل المعروف حين جاء بصفة رجل غريب لم يبدُ عليه أثر السفر، إلى النبي ﷺ وأصحابه، وسأل النبي عن الإسلام والإيمان والإحسان وعن الساعة، فقال النبي ﷺ في التعريف به بعد خروجه: هذا جبريل أتاكم ليعلمكم أمور دينكم[1]. وكان تعليمه الإسلام للصحابة، من خلال الأسئلة التي سألها للنبي ﷺ وكان يصدّقه عليها. وكذلك النصوص المنيرة الكثيرة في القرآن والسنة والكتب والبحوث، التي تتحدث عن الروح والقلب والعقل والبصيرة والفطرة، والتي تتعرض لمواضيع التربية والزهد والسلوك وأثرها في بناء الربانية، ويمكن للقارئ أن يرجع إلى تلك البحوث والمصادر، للمزيد من التفصيل والاستزادة في موضوع الربانية وصلتها بالعقيدة والأخلاق والعمل.[2]

---

[1] حديث صحيح رواه مسلم، وذكره النووي في الأحاديث الأربعين النووية.

[2] انظر: كتاب العولمة وأثرها في التربية والمجتمع العربي/ للمؤلف. ط. عمان/ عالم الكتب الحديث ٢٠١١م.

مفردات الرمز الهندسي ومواضعه في النص القرآني

الرمز الهندسي العربي الشامل هو شكل افتراضي هندسي لتفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية، مكون من ثلاثة مواضع، مع تغذية راجعة – حالة الإياب ومرجعية الموضع الثالث إلى الموضع الأول – تعتمد الأسبقية الزمنية والأهمية الموضوعية. وهذه المواضع الرمزية فيما يخص الإنسان وعالمه وملكاته الدماغية والعاطفية والمنطقية، هي موضع الروح وموضع القلب وموضع العقل أو البداهة والارتجال والبصيرة، والوجدان والعرفان والأخلاق، والتجربة والفقه والعلم والعمل[1]. وهي مفردات بارزة وجوهرية في النص القرآني، وفي الحديث النبوي، فضلاً عن المفردات التعبيرية ومرادفاتها في اللغة العربية، التي تكثر فيها استعمال تلك المفردات والمصطلحات نثراً وشعراً وحكايةً وقصصاً وروايةً. ونحاول أن ندرج أدناه بعض المفردات القرآنية والحديثية التي تذكر الروح والقلب والعقل واشتقاقاتها اللغوية في النصوص التالية، للتدليل على اهتمام القرآن والسنة بمفردات الرمز الهندسي العربي والصلة الجدلية بين مواضعه الثلاث.

قال تعالى في تكريم الإنسان بنفخه من روح الله سبحانه:

---

[1] انظر: كتاب الرمز الهندسي العربي/ محمود الغزنوي (مخطوط).

﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلاً ما تشكرون﴾[1]. وقال تعالى في تعريف الروح وسرّها في الجسد: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[2]. وقال تعالى: ﴿قل نزّله روح القدس من ربك بالحق، ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾[3]. وقال: ﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾[4]. وقال: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام..﴾[5].

أما القلب فقد ذكره القرآن كثيراً للتدليل على الإيمان والأخلاق والمشاعر والأحاسيس. فقال تعالى في صفة القلب الرباني وتأثيره في المجتمع: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك..﴾[6]. وقال: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾[1]. وقال: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[2].

---

[1] سورة السجدة/ ٩

[2] سورة الإسراء/ ٨٥.

[3] سورة النحل/ ١٠٢.

[4] سورة غافر/ ١٥.

[5] سورة القدر/ ٤.

[6] سورة آل عمران/ ١٥٩.

وقال: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[٣].

وقوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[٤].

وقال سبحانه عن الناس الغافلين والكافرين بربهم وبقيم الدين ومنهجه القويم: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[٥]. وقال في الإشارة إلى أنه لا دخول للإيمان إلى القلب حتى نرتقي في التدرج والسلوك من الإسلام إلى الإيمان، وصولاً إلى الإحسان والربانية في مدارج السالكين: ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾[٦].

وقال: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[٧].

وقال النبي ﷺ في تعريف القلب وصلته بالجسد والوجدان والسلوك: إلا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت

---

[١] سورة الحديد/ ٢٧.

[٢] سورة محمد/ ٢٤.

[٣] سورة الرعد/ ٢٨.

[٤] سورة الحج/ ٤٦.

[٥] سورة الأعراف/ ١٧٧.

[٦] سورة الحجرات/ ١٤.

[٧] سورة محمد/ ٢٤.

فسد الجسد كله، ألا وهي القلب[1]. وقال: إنما الكرم قلب المؤمن[2]. وقال: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل[3].

وقال تعالى في العقل والتعقّل والحكمة وتدبّر الأمور والأعمال: ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[4]. وقال: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾[5]. وقال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[6]. وقال تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾[7]. وقال: ﴿لا يقاتلونكم إلا في قرىً محصنة أو من وراء جدر، بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾[8]. وفي دور النبي ﷺ في تربية جيل النبوة بالحكمة وتزكيته وتعليمه، يقول تعالى:

---

[1] رواه البخاري.

[2] رواه البخاري.

[3] رواه السيوطي في الجامع الصغير، وهو حديث ضعيف.

[4] سورة النحل/ ١٢.

[5] سورة الفرقان/ ٤٤.

[6] سورة الروم/ ٢٤.

[7] سورة الحجرات/ ٤.

[8] سورة الحشر/ ١٤.

﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [1]. وقال: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [2].

وقال النبي ﷺ في التعقّل والحكمة والتدبير والإحاطة بالأمور: إن الله لا يتم هذا الأمر إلا إذا أحيط به من جميع جوانبه[3]. وقال للأعرابي الذي ترك دابته ودخل المسجد: يا عبد الله أعقل وتوكل. وفي لفظ آخر: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل. قال: أعقلها وتوكل. (يعني الناقة) [4].

وقد تربت أجيال الأمة بعد الجيل القرآني الفريد الذي تربى في عصر النبوة على تعاليم القرآن وهدي النبوة، وفي مقدمة تلك الأجيال أجيال الخيرية الثلاثة، لاسيما جيل التابعين وتابعيهم، ثم ظهرت شخصيات وعظماء وقادة من هذه الأمة، كانوا مجددين وهادين مهديين في التاريخ الإسلامي، لا يحتاج المسلم أن يبذل جهداً وتكلّفاً في التعرّف على آثارهم وتراثهم وسيرتهم العطرة، التي غيرت

---

[1] سورة آل عمران/ ١٦٤.

[2] سورة الجمعة/ ٢.

[3] رواه أبو نعيم والديلمي في دلائل النبوة.

[4] رواه الترمذي.

وجه التاريخ وجعلت حضارة القرآن تسود الأرض والعالم القديم لمدة تزيد على ألف سنة، كأئمة الدين والحديث والمذاهب، من الأولياء الربانيين والفقهاء والعلماء في علوم القرآن والتاريخ، والدعاة والمصلحين والقادة المجددين، وهم أكثر من أن نحصرهم في قائمة أو نحدد لهم أسماء ومسميات، ولعل أبرز صفة وملمح في سيرتهم ومنهجهم، هي الربانية، بما فيها من قوة وثبات عقيدة وخلق قويم وأعمال عظيمة، ظلّت على مرّ العصور قدوة للأجيال ومنارة للعاملين، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

هل يقود الاستقطاب الطائفي الأمة إلى الوهن والتصدع والخسران؟

ان حالة التخلف الحضاري والتصدع الطائفي والعرقي والوهن السياسي والحضاري التي تعيشها الأمة اليوم، والتي تكررت في التاريخ مرات عديدة، بعد الغزو المغولي وسقوط بغداد حاضرة الخلافة العباسية، وحالة دول الطوائف التي شهدتها الدويلات الأندلسية قبل سقوط غرناطة، وختامها اغتصاب فلسطين والهيمنة الأمريكية على العالم الإسلامي بعد حرب العراق وأفغانستان ولبنان والصومال والسودان. وحالة التداعي والتكالب الاستعماري على الأمة وثرواتها الطبيعية وإمكاناتها المتنوعة، لاسيما النفط ومصادر الطاقة والمياه وغيرها، هي حالة محبطة للآمال. إن هذه الحالة الواهنة المتردية لا تنسجم مع تاريخ الأمة ودورها الفريد في التاريخ تحت راية حضارة القرآن منذ فجر الإسلام ولمدة ألف عام تقريباً. وهي ما يجسّدها

حديث التداعي الذي يخبرنا به النبي ﷺ، وهو يقول: يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أومن قلة نحن يومئذٍ يا رسول الله؟. قال: بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم لكم، وليقذفنّ في قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟. قال: حب الدنيا وكراهية الموت. ويعزز معنى الحديث، قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا من المشركين. من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا، كل حزب بما لديهم فرحون﴾[1].

لقد استطاع التيار الطائفي الاستقطابي، والذي توسعت شعبيته اليوم في صفوف الفريقين، مع انتشار ثقافة الصراع والخوف من الآخر، التي تغذيها بعض الأساطير والأفكار المسيّسة للدين والمذهب، استطاع أن يحاصر ويحجّم أية دعوة جادة تدعو إلى الوحدة والتقريب، والى التعايش والتسامح والتكامل الإسلامي، وبإمداد من القوى والتوجهات الخارجية والأجنبية كما أشرنا سابقاً، لاسيما دعوات التغريب العلمانية واليسارية الملحدة أو التوراتية الإنجيلية (الشعوبية الغربية) ودعوات التشويه والشعوبية الشرقية، كالمجوسية والبوذية والوثنية وغيرها من الدعوات المعادية الهدامة.

---

[1] سورة الروم/ ٣٢.

الوحدة الإسلامية مسؤولية الجميع

إن الوحدة والأخوة والتسامح الديني والمذهبي، هي جوهر ما أكدت عليه تعاليم القرآن والسنة النبوية، وان رفض منهج الوحدة والتقريب هو في حقيقته رفض لمنهج القرآن وتعاليمه الكريمة، مهما تبجح الرافضون والمتشددون بأنهم المدافعون الحقيقيون عن بيضة الإسلام ووحدته، ومهما كانت الخشية والمخاوف من استغلال لافتة الوحدة والتقريب من قبل الدعوات الباطنية والشعوبية، ومن قبل الغلاة أصحاب البدع الشركية، كما يحتج بعض المعترضين بالقول: إن هذه اللافتة القرآنية الوحدوية استغلت وتستغل للدعوة والتبشير بالمذهب المخالف، في أوساط المجتمع السني. وهو قول مردود وخاطئ، وفي أفضل حالاته هو رأي يأخذ بالرخصة بدل العزيمة في أمر مهم وخطير في حياة الأمة، لأن الدعوة إلى الوحدة والى منهج القرآن الوسط هو واجب الوقت الآن، بسبب مخاطر التنازع والفرقة والتشتت التي تعيشها الأمة، حتى وصلت في تدهورها إلى مؤخرة الركب الحضاري بين الأمم. وإذا كان منهج الوحدة والتقريب – من خلال استعراض تاريخه القديم والحديث – هو دعوة مبطنة لنشر المذهب الامامي في الوسط السني، دون إعطاء أية فرصة لنشر التسنن في الوسط الشيعي، كما يدعي هؤلاء وكما ذكر ذلك الكاتب (د. ناصر القفاري) في كتابه الموسوم (مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة)[1]

[1] انظر: كتاب مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة/ د. ناصر القفاري.

معبراً بذلك عن وجهة نظر المدرسة السلفية الحديثة، وكما يدعي التيار السلفي المعاصر أيضاً في العديد من أدبياته ومناظراته. فلماذا لا يحاول الدعاة المخلصون أن يقلبوا الطاولة على الآخر الباطني المنافق كما يسمونه، وأن يمارسوا واجب الدعوة للوحدة والتقريب القرآني، بأن يكون منهج الوحدة والتقريب لديهم هو: الدعوة الصادقة لنشر ثقافة القرآن ومنهج الوحدة والاعتصام بحبل الله في الوسط السني والشيعي معاً، دون إعطاء أية فرصة لنشر ثقافة التحزب والاستقطاب الطائفي والغلو والتعصب والرؤية الهدامة في الوسط الإسلامي؟..

وبذلك نكون قد حولنا المسألة الطائفية وفق المفهوم القرآني الوحدوي المذكور آنفاً، إلى موضوع وحدوي دعوي ايجابي لنشر ثقافة القرآن في الوسط السني والشيعي على السواء. وبذلك يتحول التقريب إلى منهج تربوي ودعوي يقرّب المسلمين إلى ثقافة القرآن وتعاليمه وأخلاقه، تأسياً بالنبي الكريم ﷺ الذي: كان خلقه القرآن، كما ورد في الحديث الصحيح الذي روته السيدة عائشة[1]. قال تعالى: ﴿**ولا تكونوا من المشركين. من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا، كل حزب بما لديهم فرحون**﴾[2]. وقال: ﴿**وإن هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاعبدون**﴾[1].

---

[1] روى البخاري عن السيدة عائشة وصفها للنبي ﷺ بقولها: كان خلقه القرآن.

[2] سورة الروم/ ٣٢.

لقد كاد التوجه (الحنبلي) السلفي الحديث أن يسود في الوسط السني، وكذلك التوجه الشيعي المغالي المضاد له في الوسط الشيعي، لولا أن منّ الله على الأمة برجال وعلماء عظام، ومجددين كرام أمثال: (الشيخ محمد عبده) و(جمال الدين الأفغاني) و(حسن البنا) و(حسين الكاشاني) و(علي شريعتي) و(سيد قطب) و(محمد الخالصي) و(مصطفى السباعي) و(محمد جواد مغنية) و(محمد الغزالي) و(محمد حسين فضل الله) وغيرهم كثير، ممن رفد المنهج القرآني الوحدوي الوسطي، الذي دعا بدعوى القرآن إلى منهج الوحدة والتقريب والتعايش البناء بين الفريقين، والالتقاء حول أصول الدين وإفشاء السلام واحترام رموز الطرفين والاحترام المتبادل بين الفريقين، وتوسيع دائرة المشتركات الدينية والأخلاقية والحضارية بين المسلمين، مع الاحتفاظ بالخصوصية المذهبية لكل طرف، واعتماد مبدأ الحرية الدينية والمذهبية التي ينبغي أن تتحدد بضوابط أخلاقية واجتماعية متفق عليها، والتي ينبغي أن تنتهي عند تعارضها مع حرية الآخرين، مما يستدعي التقنين والتنظيم للحريات والطقوس والشعائر الدينية والاجتماعية المختلف حول أداءها وممارستها عند كل مذهب، وفق تشريعات وقوانين تضبط حركة المجتمع المتعدد الطوائف والأديان والأعراق، وتحاسب المتجاوزين والمعتدين على حرية الآخر، تماماً كما هو معمول به في الدول الأخرى، لاسيما في العالم

---

[1] سورة الأنبياء/ ٩٢.

الغربي، وما تم تقنينه في العلاقات الدينية التي تحكم الأديان والمذاهب في الغرب، ويمكن أن نأخذ العلاقة بين المذهبين المسحيين البروتستانتي والكاثوليكي في انكلترا وألمانيا وأمريكا، كنموذج لتنظيم العلاقة في ممارسة الشعائر والطقوس لكلا المذهبين. وقد دعا المصلحون الوحدويون إلى رفض منهج الغلو والتشدد والتهميش والإقصاء وكل مسببات الصراع والصدام والفتن بين المسلمين، سعياً وراء الوصول إلى الفهم الأمثل للإسلام الرباني وتعاليم الوحي الصادق ونشر ثقافة القرآن الموحِّدة والهادية إلى سواء السبيل.

لقد أسست لذلك جمعيات وهيئات ومؤسسات وجامعات ومعاهد تدعو إلى الوحدة والتقريب في وقت مبكر منذ منتصف القرن الماضي، في مصر ولبنان والعراق وإيران، ورغم ان هذه الجهود كانت متعثرة ومخترقة أحياناً من بعض الجهات والأشخاص المتاجرين بالدين والمسيسين له وللملف المذهبي. وربما من هؤلاء بعض اللاهثين وراء الكسب المذهبي والطائفي لمصالح وأهداف ضيقة، أكثر منها للعمل المخلص من أجل الوحدة الإسلامية المنشودة، إلا أن الأمل مازال كبيراً في تصحيح المسيرة الوحدوية وإنضاج التجربة الدعوية، وشجب الانفراد والاستقطاب الطائفي والغلو والتشدد والتكفير، وعدم السماح للبدع والشركيات والأساطير بالدخول والتغلغل إلى الثقافة الإسلامية الرشيدة، لخلق جيل قرآني معتدل وسطي، يسير على منهج النبوة وتعاليم الوحي، بعيداً عن الهرطقة

واللاعلمية والغلو والتعصب للقبيلة أو العرق أو الجهة أو المذهب، الذي نهى عنه النبي ﷺ بقوله الكريم: دعوها فأنها منتنة[1]. وقال: سيأتي بعدكم أقوام، تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم، ولكنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة. وفي لفظ آخر: سيأتي بعدكم أقوام يتعمّقون في الدين، حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرميّة[2]. ويقصد بها العصبية والتنطّع والتشددّ في الدين والمذهب. فلابد إذن من مواصلة العمل الوحدوي لإحياء تلك الجهود العظيمة التي بذلت، من أجل إيجاد رأي عام إسلامي معتدل متعايش، وخلق ثقافة قرآنية متكاملة تعتمد مبدأ الاحترام المتبادل والتأكيد على أركان الدين والثوابت والأصول، وعلى مبدأ المشتركات الدينية والأخلاقية والوطنية، ومحاولة تقريب المسلم (أياً كان مذهبه وفكره) والثقافة العامة السائدة بين الناس إلى ثقافة القرآن وتعاليم الوحي الصادق بالحكمة والقدوة الحسنة وبالتي هي أحسن، وفق منهج إعلامي وحدوي معتدل يجمع ولا يفرق، يقوم على أساس العلم والإيمان ومصلحة الأمة العليا[3].

---

[1] رواه البخاري.

[2] رواه البخاري ومسلم.

[3] انظر: كتاب الإعلام القرآني في ظل منهج الوحدة والتقريب/ للمؤلف، دار الأوائل، دمشق، ٢٠٠٩م.

ولذلك يحق لنا أن ندعو بثبات ويقين راسخ إلى الوحدة الإسلامية، باعتبارها مسؤولية الجميع، وندعو إلى المذهبية المنفتحة السمحة، وإلى احترام كافة المذاهب الإسلامية، مع احترام الخصوصية المذهبية، بشرط عدم المساس ببقية المذاهب ورموزها وتراثها المضيء ودورها الوحدوي، وان لا تتحول تلك الخصوصية إلى أصل من أصول الدين، يكفّر على ضوئها المسلم المخالف، أو تكون سبباً للتغييب والتهميش والاستباحة، بحجج وفتاوى دينية أو مذهبية واجتهادات طائفية. كما يحق لنا دعوة المسلمين جميعاً إلى الاهتمام بلغة القرآن والهوية العربية بمعناها القرآني، والاهتمام بعلوم القرآن ولغته المقدسة، والانتماء إلى الإسلام الحنيف والرسالة الخاتمة الصافية الأصيلة، الخالية من التحريف والتبديل، على أساسً أنها رسالة الأنبياء والمرسلين، وان الإسلام هو الدين الحق عند الله، وأخيراً الدعوة إلى الكلمة السواء مع باقي الأديان والحضارات، والى السلام والتعايش والتسامح الديني، ودعوة الناس كافة إلى منتدى حضارات متكاملة ومتعايشة، وليس ثقافات وعقائد متصارعة ومتصادمة، كما يصفها بعض منظري الغرب في العصر الحديث.

الخاتمة

ربما أصبحت أهمية الوحدة الإسلامية في حياة الأمة واضحة الآن، بغية استعادت دورها الحضوري والأخلاقي، وتجنب المخاطر والتحديات المعاصرة المحيطة بنا وبمجتمعاتنا الإسلامية بشكل عام. لذلك لابد لنا من مراجعة حالة التمزق والتشتت التي نعيشها، بسبب التخلف الحضاري الذي لازمنا منذ قرون، وبسبب حالة الاصطفاف الطائفي والعرقي، الذي حوّلنا إلى فرق وشيع وأحزاب متنافرة ومتعارضة، كل حزب بما لديهم فرحون. وفي ختام الكلام في مسألة الوحدة والتقريب بين المذهبية السمحة والاستقطاب الطائفي، نستطيع أن نوجز أهم ما تم عرضه، على شكل توصيات ولافتات مضيئة، لابد من الوقوف عندها، لتحقيق ثقافة الوحدة والتقريب بين المسلمين، ونبذ الاستقطاب والتعصب والتشدد الطائفي، وإيقاف حالة الصراع والتدهور الاجتماعي والثقافي بين صفوف الأمة، بسبب التوتر والاحتقان المتفاقم والناشئ من ذلك الصراع الطائفي المزمن العقيم. وأهم تلك التوصيات التي يمكن أن نستقيها من فصول الكتاب، هي:

١- اعتماد مرجعية القرآن والسنة الصحيحة وفق المنهج الوسط.

٢- تتجسّد الوحدة الإسلامية بوحدة الأمة ووحدة الدين واللغة والتاريخ والتراث المشترك، مع وجود التعددية المذهبية والسياسية والثقافية في ظل مفهوم وحدة الدين والأمة.

٣- إن التقريب القرآني، هو تقريب المسلمين إلى ثقافة القرآن ومنهجه وتعاليمه الإلهية، وليس التقريب التقليدي المتعذّر بين المذاهب.

٤- التأكيد على أهمية الربانية والإحسان وتزكية النفوس ثقافياً وسلوكياً أخلاقياً في حياة الأمة، تأسياً بالنبي القدوة الذي كان خلقه القرآن، وبأتباعه من الآل والأصحاب، الذين ساروا على دربه، لتحقيق العبودية لله والأخلاق الفاضلة على الأرض.

٥- التأكيد على المنظور الوحدوي الذي يعتمد الثوابت والأصول الإسلامية، والمشتركات الدينية والأخلاقية والوطنية والإنسانية بين أطياف الأمة ومذاهبها.

٦- التأكيد على ثقافة إفشاء السلام الاجتماعي والشورى والعدالة الاجتماعية، بين أفراد البلد الواحد وتياراته المتنوعة، والتأكيد على أهمية الهوية المحلية والمواطنة، باعتبارها جزء من أخلاق المسلم ودينه وشخصيته الواقعية البناءة.

٧- نبذ ثقافة الاستقطاب والانفراد الطائفي لأي من المذاهب الإسلامية لدى الفريقين. لأن المذهب هو مدرسة لتعلم الأمور الشرعية والتفقه بالأحكام لممارسة العبادة وفق الاجتهادات المذهبية لكل مذهب.

٨- نبذ الإعلام الطائفي والمذهبي الذي يدعو إلى التعصب والتشدد والاستقطاب الطائفي، أو الإعلام المنافق الباطني الذي يضمر ما لا يظهر من الصور والدعوات الهدامة التي تنخر في جسم الأمة وتهدد وحدتها، ولا يؤمن بالوحدة والتقريب القرآني ومبدأ الوسطية والاعتدال والتسامح والتعايش الإسلامي.

٩- التأكيد على احترام خصوصية المذاهب والأديان والأعراق المتعايشة في الوطن الواحد وفي العالم العربي والإسلامي. واحترام

حرية المعتقد وحرية ممارسة الطقوس الدينية والاحتفالات الوطنية، بما لا يتعارض مع حرية الآخرين وممارسة طقوسهم واحتفالاتهم.

١٠- التأكيد على التواصل الاجتماعي والديني من خلال الاحتفال بالمناسبات المشتركة، كموسم الهجرة ورمضان والعيدين وغيرها، باعتبارها مواسم تعبر عن الروح الوحدوية لأطياف الأمة.

١١- لا يوجد تعارض بين التوجه الوحدوي والاحتفال بالمناسبات الدينية والقومية المنفردة، التي تخص طيف معين من أطياف الأمة. وينبغي التأكيد على تأمين الظروف والمستلزمات المطلوبة لها. وكذلك التأكيد على احترام ومراعاة مشاعر الآخر، في التعبير عن الفرح أو الحزن للمناسبات المذهبية العامة، من خلال التقنين والتنظيم الملائم لها، بحيث لا تشكل حافزاً للتوتر الاجتماعي ورفع الحس الطائفي، ولا تكون سبباً للاستفزاز وإثارة المشاعر السلبية والعدوانية لدى أحد الفريقين، أو تصب في خندق التبشير المذهبي والديني لطرف معين. والتأكيد على مفهوم تأمين انسيابية الحركة الاحتفالية، وتأمين وسائل التجمع والاحتفال بمنأى عن الآخر وأماكن تواجده المعتادة، في الأسواق والدوائر الحكومية والأماكن المشتركة. وكذلك نبذ أسلوب استغلال الاحتفالات والمناسبات بهدف فرض الثقافة المذهبية على الآخر.

١٢- إن خصوم الأمة والأيادي الخفية المتربصة بنا، يحاولون إخافتنا من كابوس الطائفية والعرقية والفتن والصراعات المزمنة في تراث الأمة، واستغلال ملف الأقليات والطوائف التي تعيش بيننا منذ قرون طويلة، من خلال نظريات تكنولوجيا السلوك والفوضى الخلاقة وصدام

الحضارات، بهدف دفعنا – برد الفعل – إلى الخندق المعاكس، لتغيير الهوية والتشكيك بالانتماء وتشويه الثقافة الأصيلة، وفرض ثقافة التغريب والمنهج العلماني وثقافة العولمة المادية في صفوف الأمة وبين شبابها ومثقفيها، في محاولة لتحويلها إلى كتل وأطياف متصارعة، يلغي بعضها أثر بعض، بحيث تتكرّس حالة الوهن التي حذرنا منها النبي الكريم، وبما يشبه المغناطيس الضعيف المبعثر القوى والأقطاب، سواء بعلمنتها وعولمتها أم بجعل الانتماء الطائفي فوق الانتماء العربي والإسلامي. وسنكون حينئذٍ كمن يستجير من الرمضاء بالنار. إن العلمانية المادية ليست بديلاً عن الاستقطاب الطائفي، وإنما البديل هو أن نمتلك إرادة التغيير والهداية نحو التقدم والازدهار، من خلال تأصيل مفهوم الوحدة والتقريب والسلام الاجتماعي بين فصائل الأمة.

١٣- ينبغي أن لا تكون الدعوة الإسلامية بين المسلمين، دعوة لمذهب معين ودعوة تبشيرية للآخر فحسب، لأن ذلك سيسبب الصراع والشقاق والاستقطاب الطائفي. ومع ذلك يمكن ممارسة الدعوة الإسلامية المذهبية خارج حدود العالم الإسلامي، وان كان الأولى من ذلك هو الدعوة للإسلام وثقافة القرآن بشكل عام، انسجاماً مع مبدأ وحدة الدين والأمة.

١٤- نبذ أسلوب الجدل الطائفي والحوار المذهبي في الأمور الخلافية الراسخة والمزمنة. وإذا كان لابد من الحوار والنقاش العلمي الموضوعي في أمور عملية واجتماعية وثقافية، فينبغي أن تكون وفق مبدأ الحوار الهادئ الودي المعتدل، ولأهداف الوحدة والتقريب الإسلامي والتعايش البناء بين الفريقين.

المصادر

١- تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير، ط. بيروت/ دار المعرفة ١٩٨٢م.
٢- تفسير القرآن العظيم/ الشيخ عبد الكريم المدرس.
٣- صفوة التفاسير/ محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم/ بيروت.
٤- تاريخ المذاهب الإسلامية/ الشيخ محمد أبو زهرة.
٥- تاريخ الأمم الإسلامية/ الشيخ محمد الخضري بك.
٦- رياض الصالحين/ الإمام النووي، ط. بغداد/ أنوار دجلة.
٧- في ظلال القرآن/ سيد قطب، ط. بيروت/ دار الشروق ١٩٧٨م.
٨- نهج البلاغة/ تحقيق الشيخ محمد عبده، ط. بيروت.
٩- فقه السيرة/ د. محمد سعيد رمضان البوطي، ط. دمشق/ دار الفكر.
١٠- فقه السنة/ سيد سابق، ط. بيروت/ دار الكتاب العربي.
١١- الطبقات الكبرى/ لابن سعد، ط. بيروت/ دار صادر.
١٢- أعيان الشيعة/ السيد محسن الأمين، ط. النجف/ العراق.
١٣- وسائل الشيعة/ الحر العاملي.
١٤- وصايا الرسول لزوج البتول/ السيد علي محمد الحسيني الصدر، ط٢. بيروت/ دار الأندلس ٢٠١٠م.
١٥- الفقه على المذاهب الإسلامية الخمسة/ محمد جواد مغنية.
١٦- الامام الصادق/ الشيخ محمد أبو زهرة، ط. القاهرة ١٩٦٥م.
١٧- لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث/ د. علي الوردي.
١٨- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ د. جواد علي.

١٩- مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة/ د. ناصر عبد الله القفاي، دار طيبة.
٢٠- التفسير الإسلامي للتاريخ/ د. عماد الدين خليل.
٢١- كيف نكتب التاريخ الإسلامي/ محمد قطب.
٢٢- الوسطية في الإسلام/ د. يوسف القرضاوي.
٢٣- الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها/ د. ماجد عرسان الكيلاني.
٢٤- التعصب الأوربي أم التعصب الإسلامي/ الأمير شكيب أرسلان.
٢٥- رسالة التعاليم ورسالة العقائد / للشيخ حسن البنا.
٢٦- شرح الأصول العشرين للإمام حسن البنا/ جمعة عبد الله، ط. القاهرة ١٩٩١م.
٢٧- جامع السعادات/ محمد مهدي النراقي، ثلاثة أجزاء، ط. النجف.
٢٨- إحياء علوم الدين/ أبو حامد الغزالي، خمسة أجزاء، ط. دار المعرفة.
٢٩- معجم رجال الحديث/ السيد أبو القاسم الخوئي.
٣٠- النفحة المسكية في الرحلة المكية/ عبد الله السويدي.
٣١- مؤتمر النجف/ عبد الله السويدي- تحقيق محب الدين الخطيب، ط. القاهرة.
٣٢- مؤتمر علماء بغداد/ مقاتل بن عطية.
٣٣- في التزكية والسلوك/ عدنان سعد الدين.
٣٤- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ فؤاد عبد الباقي.
٣٥- حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية/ د. صلاح الخالدي ١٩٩٥م.
٣٦- حقائق عن الغزو الفكري للإسلام/ أنور الجندي.
٣٧- المعتزلة وأصول الحكم/ د. محمد عمارة.
٣٨- ترشيد الاختلاف لواقع الائتلاف/ أحمد عبد العزيز.
٣٩- العبودية/ أحمد بن تيمية.
٤٠- تطور الفكر السياسي الشيعي/ أحمد الكاتب، ط. لندن ١٩٩٧م.

٤١- التشيع العلوي والتشيع الصفوي/ د. علي شريعتي.
٤٢- هكذا تكلم علي شريعتي/ د. فاضل رسول، ط. دار الكلمة/بيروت ١٩٨٧م.
٤٣- حاضر العالم الإسلامي/ مالك بن نبي.
٤٤- الصراع الفكري/ مالك بن نبي.
٤٥- لا شيعة ولا سنة/ محمد الزعبي.
٤٦- الرمز الهندسي العربي الشامل/ محمود الغزنوي (مخطوط).
٤٧- شمس العرب تسطع على الغرب/ د. زيغريد هونكه.
٤٨- الخالدون في التاريخ أو المائة الأوائل/ د. مايكل هارث، ط. بيروت.
٤٩- الإنجيل والصليب/ داود عبد الأحد، ط. اسطنبول/ تركيا.
٥٠- محمد ﷺ في الكتاب المقدس/ داود عبد الأحد.
٥١- الأمير/ ميكافيلي، ط. بيروت.
٥٢- صدام الحضارات/ صومائيل هنتكتون.
٥٣- نهاية التاريخ/ فرنسيس فوكوياما.
٥٤- الفوضى الخلاقة/ بريجنسكي.
٥٥- الفوضى الخلاقة أم المدمرة/ مصطفى بكري.
٥٦- صناعة اللوبي الصهيوني في أمريكا/ ط. بيروت/ دار بيسان.
٥٧- الطريق إلى المدينة/ أبو الحسن الندوي.
٥٨- صورتان متضادتان لنتائج جهود النبي ﷺ/ أبو الحسن الندوي.
٥٩- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي/ د. مصطفى السباعي ١٩٦١م.
٦٠- دعاة لا قضاة/ المستشار حسن الهضيبي.
٦١- كتاب التوحيد/ محمد بن عبد الوهاب.
٦٢- حصوننا مهددة من داخلها/ د. محمد محمد حسين.

٦٣- يهود الدونمة/ د. أحمد النعيمي، ط. بغداد.
٦٤- إبراهيم أبو الأنبياء/ عباس محمود العقاد.
٦٥- النسب والمصاهرة بين أهل البيت والصحابة/ علاء الدين المدرس، ط. بغداد وعمان ودمشق والدوحة والقاهرة ١٩٩٨م – ٢٠٠٦م.
٦٦- مؤتمر النجف.. رؤية نقدية قرآنية معاصرة/ علاء الدين المدرس، ط. عمان ٢٠٠١م.
٦٧- ثقافة الوسط/ علاء الدين المدرس، ط. عمان/ عالم الكتب الحديث ٢٠٠٦م.
٦٨- الإعلام القرآني في ظل منهج الوحدة والتقريب/ علاء الدين المدرس، ط. دمشق/ دار الأوائل ٢٠٠٩م.
٦٩- عولمة اللغة والتاريخ.. وفق المنظور القرآني ومسطرته/ علاء الدين المدرس. ط. عمان/ عالم الكتب الحديث ٢٠٠٨م.
٧٠- العولمة وأثرها في التربية والمجتمع العربي/ علاء الدين المـــدرس. ط. عمان/ عالم الكتب الحديث ٢٠١١م.

الفهرست

المقدمة.	٥
حضارة الغرب وأثرها على البيئة والأمن والسلام العالمي.	١٢
المذهبية بين مفهوم الوحدة والاستقطاب الطائفي.	٢٠
التأثير الثقافي للمنهج الوسط في نشر ثقافة الوحدة والتقريب.	٢٣
صور الإسلام الثلاثة في القرآن والسنة.	٤٠
مفهوم الأمة الواحدة في المنظور القرآني.	٥١
ملامح الأمة الوسط في القرآن وعصر النبوة.	٦١
المنهج الوسط والمذهب الحنفي وصلته بالمذاهب الأخرى.	٧٠
العقيدة الأشعرية السلفية هي عقيدة ٨٠% من علماء الأمة.	٧٢
الأحناف والحنابلة والتنافس على الصدارة بين المذاهب الإسلامية.	٧٥
الانفراد المذهبي ومحاربة التعددية المذهبية والثقافية.	٧٧
نجاح مؤتمر النجف في الاتفاق على الوحدة والتقريب ونبذ التشدد.	٨٢
التعامل الإعلامي المتشدد مع أحداث مؤتمر النجف.	٨٧
مؤتمر علماء بغداد المزعوم في العصر السلجوقي العباسي.	٨٩
جماعة التقريب بين المذاهب في مصر العروبة والأزهر الشريف.	٩٢
العقيدة الوسطية الحنفية وراء فتوى الشيخ شلتوت.	٩٥
الغلاة هم أقلية في المجتمع الإسلامي.	٩٩
نظرية تكنولوجيا السلوك وصناعة الثقافة والرأي العام.	١٠١
الربانية والرمز الهندسي العربي.	١٠٦
هل يقود الاستقطاب الطائفي الأمة إلى الوهن والتصدع والخسران؟.	١٢٣
الوحدة الإسلامية مسؤولية الجميع.	١٢٤

الخاتمة. ١٣١
المصادر ١٣٥
الفهرست ١٣٩